مجلة جامعة الملك عبد العزيز : الآداب والعلوم الانسانية ، م٢ ، ص ص ٧١ - ١٢٧ (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)

المؤرخ ابن بسام
(١٢٧٠ - ١٣٤٦هـ)
هويته العلمية وجذورها الأولى في ضوء نصوص جديدة أو منسية

محمد ثنيان الثنيان
أستاذ مساعد - قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبد العزيز - جدة
المملكة العربية السعودية

المؤرخ عبد الله بن محمد البسام صاحب دور بارز في كتابة تاريخ الجزيرة العربية . ولكن بالرغم من هذا ، فالانطباع المأخوذ عنه لدى الكثير من الباحثين أن اهتمامه بالتاريخ أتى في فترة متأخرة من حياته ، بل قال البعض إن هذا الاهتمام كان وليدا لعلاقته مع معاصره المؤرخ إبراهيم بن عيسى .

ويبدو أن تبني مثل هذه الأراء كان سببه عدم الإلمام بحياة ابن بسام الأولى ، واهتماماته العلمية المبكرة ، وذلك نتيجة لعدم توافر أي معلومات لدى هؤلاء الباحثين عن هذه الفترة .

هذه الدراسة بأبرازها لمثل هذه المعلومات - الجديدة أو المنسية - والمتمثلة برواية الرحالة الإنجليزي تشارلز داوتي Charles Doughty وماقاله عن ابن بسام في شبابه ، ستحاول أن تلقى ضوءاً على الهوية العلمية لهذا المؤرخ ، مع التركيز على جذورها الأولى ، والتي لعلها بذلك تصحح صورة ابن بسام العلمية في الأذهان ، وتضعه في مكانه اللائق به .

وبجانب نصوص رواية داوتي هذه ، ستستكمل مسيرة ابن بسام العلمية مما جاء عنها في المصادر الأخرى .

البدايات الأولى لكتابة التاريخ وتدوينه في نجد في العصر الحديث ، كانت في منطقتي سدير والوشم . حيث برز فيهما بعض أصحاب المحاولات الأولى كالشيخ أحمد بن بسام ، والشيخ أحمد المنقور ،

وغيرهما . ولايضاهي هاتين المنطقتين من حيث الأولوية في هذا المجال ، سوى مدينة عنيزة في القصيم . حيث تجمع المصادر على أن النهضة العلمية في هذه المدينة ، وكتابة التاريخ فيها ، بدأت على يد عالمها الكبير ومؤرخها الرائد الشيخ عبد الله بن أحمد بن عضيب ، الذي عاش في الفترة مابين (١٠٧٠ - ١١٦١هـ)[١] . ابن عضيب الذي يرجع الفضل في اكتشافه كمؤرخ إلى علامة الجزيرة حمد الجاسر[٢] كان أحسن حظاً ممن تلاه من مؤرخي مدينته ، الذين فقدت أو غابت تواريخهم ، وبالتالي ظلوا هم ومؤلفاتهم ، مغمورين بل مجهولين إلا من إشارات إليهم ، طفيفة عابرة ، لبعض العلماء والباحثين المتأخرين كالشيخ محمد بن ناصر العبودي ، والشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام ، وكذلك الشيخ محمد بن عثمان القاضي ، وحتى هذه اللمحات أو الإشارات اقتصرت على حوادث الأوراق والنبذ التاريخية التي خلفها هؤلاء دون الإشارة إلى المؤرخ نفسه .

يطالعنا الشيخ العبودي ، في كل صفحة وأخرى من سفره «المعجم الجغرافي لبلاد القصيم» أحياناً قائلاً : . . . وقد وجدت في بعض الأوراق التاريخية في (عنيزة) شيئاً يتعلق بهذا الموضوع رأيت في نقله هنا فائدة ونصه : . . .»[٣] وقل نصف صفحة من الحوادث المتعلقة بتاريخ عنيزة . وقال مرة أخرى وهو يتحدث عن سيول عنيزة وأمطارها : «. . . إلا أن عبارة ابن عيسى أدق : إذ ذكر أن الذي رأى فيه تاريخ الوقعة هو ورقات في التاريخ لعلها مشابهة لما وصل إلى من أوراق من مدينة عنيزة » .[٤]

وبعد أن أورد حوادث سنة ١١٦٠ من تاريخ ابن بسام «تحفة المشتاق» قال : «أقول هذه السنة ومابعدها تسمى في التاريخ المتعلق بالقصيم «ركدة عنيزة» رأيت في أوراق في مدينة عنيزة مايلي . . .»[٥] وقال بعد أن أورد حادثة في تاريخ عنيزة : «هذا الخبر من أوراق تاريخية في مكتبتي حصلت عليها من عنيزة .»[٦]

دأب العبودي على تكرار مثل هذا القول ، مع إيراد بعض الحوادث المتعلقة بتاريخ عنيزة نفسها أو ماجاورها من البلدان والقرى الأخرى ، والتي شملت أو غطت فترة تاريخية مبكرة واستمرت حتى قبل الوقت الحاضر بزمن قليل .

وكما فعل الشيخ العبودي ، فعل الشيخ البسام ، حيث أشار بشكل مباشر أو غير مباشر في كتابه «علماء نجد خلال ستة قرون» إلى توافر ووجود نبذ وأوراق من التاريخ في عنيزة ، عثر عليها أو ورثها عن أسلافه[٧] .

وقال الشيخ محمد العثمان القاضي في هذا الصدد : « . . . وكان لدى من المراجع مالم يتوافر لغيري من تراث الآباء والأجداد ومخطوطات نادرة الوجود في التاريخ والأنساب .»[٨]

ولايدل هذا إلا على توافر مجموعة طيبة لديهم من أوراق ونبذ التاريخ العائدة لعلماء ومؤرخين عنيزيين ضاعوا أو ضاعت أسماؤهم في خضم الماضي ودياجيه .

عبد الوهاب بن محمد بن تركي المتوفي سنة ١٢٣٧هـ واحد من هؤلاء ، وإن نال قسطاً يسيراً من العناية والحظ ، حيث أشار الشيخ البسام إلى تاريخه قائلاً : «تاريخ لبعض حوادث نجد مخطوط يقع في نحو عشرين صحيفة من القطع المتوسط وقد سقط من أوله وآخره وقد اطلعت عليه وفيه نبذة تاريخية لاتوجد في غيره .»[٩]

ويتضح من هذا أن عنيزة كانت أحد المراكز العلمية التي كان لعلمائها دور ريادي في المحاولات الأولى المبكرة في كتابة وتدوين التاريخ في نجد ، مثلها في ذلك مثل الوشم وسدير . ولا أدل على هذا من قول الشيخ العبودي : «بل إن حظ مدينة عنيزة من التاريخ كان أوفر من حظ غيرها من مدن القصيم في ميدان الكتابة عنها إلى ماقبل سنوات قليلة .»[١٠]

وإذا كانت فترة القرنين الحادي عشر والثاني عشر وماقبلهما ، تعد فترة ضياع في عنيزة ، ضياع لما كتب من تاريخ وجهد المؤرخين فيه ، فالقرن الثالث عشر وماتلاه كانت فترة الازدهار لصناعة التاريخ والمؤرخين . هذا الازدهار الذي حدا بعالم ومؤرخ حصيف كالعبودي إلى القول : «. . . وليس بغريب ، ذلك بأن مدينة عنيزة كانت مدينة التاريخ والأدب الفصيح في منطقة القصيم خلال القرن الثالث عشر يؤيد ذلك كثرة الأدباء المؤرخين من أهلها في ذلك الوقت بالنسبة إلى مدن القصيم الأخرى كما ستأتي الإشارة إليه ، في رسم «عنيزة» بإذن الله .»[١١]

من هؤلاء المؤرخين المشار إليهم في النص من لايزال يقبع في عالم النسيان ، أطبق عليهم الدهر فنسيهم الناس كمؤرخين ، وإن ذكروهم كعلماء متمكنين وقضاة معدودين .

قاضي عنيزة الشهير الشيخ صالح العثمان القاضي ألف كتاباً كبيراً في التاريخ بحجم اثنتى عشرة كراسة ، تضمن حوادث نجد والحجاز وماحولهما ، واستمر في تدوين الحوادث حتى سنة ١٣٥٠هـ[١٢] وكان الشيخ صالح العثمان نفسه يعد مرجعاً في التاريخ والانساب .[١٣] ابنه الشيخ عثمان ، جمع تاريخاً لحوادث نجد ووفيات أعيانهم في سبع كراريس[١٤] . وكلا التاريخين شبه مفقود ، وما جادت عليهما المصادر أو ذكرت عنهما سوى بضع أسطر لاتتعدى أصابع اليد .

بالإضافة إلى هذين العالمين المؤرخين ، هناك حفيد أمير عنيزة الشهير زامل ، الأديب عبد الرحمن بن عبد العزيز بن زامل السليم الذي كان إطلاعه على التاريخ والأنساب واسعاً ، حتى قيل عنه إنه كان من أبرز المؤرخين والنسابين والأدباء[١٥] .

وغير هؤلاء ، المؤرخ إبراهيم القاضي ، والذي كان أوفر حظا منهم حيث ذكره الشيخ حمد الجاسر فيمن ذكر من مؤرخي نجد[١٦] ، كما أشار إليه المؤرخ مقبل الذكير في تاريخه[١٧] ، وكثيرون غير هؤلاء ممن لايتسع المجال لذكرهم . بل إن أحد أدباء عنيزة صاغ تاريخها شعراً[١٨] ويأتي على قمة مؤرخي عنيزة وفي طليعتهم مقبل بن عبد العزيز الذكير ، وعبد الله بن محمد البسام المعنى بهذه الدراسة .

عبد الله بن محمد البسام ، بالرغم من أنه ساهم في كتابة التاريخ ، وكان ذا دور بارز فيه ، حيث ألف سفراً ضخماً دعاه «تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق» قال عنه الشيخ ابن بسام : «. . . والذي يعد بحق أحسن وأوفى وأعدل تواريخ نجد»[١٩] ، وقال عنه الشيخ الجاسر : «. . . يحوي خلاصة ماكتبه مؤرخو نجد عن تاريخ بلادهم . . .»[٢٠] بالرغم من هذا ، إلا أن المؤرخ وكتابه لم ينالا من العناية والدراسة مايستحقان . وإذا كان الكتاب نال قسطاً ضئيلاً من الالتفات إليه بسبب كونه مصدراً هاماً وأساسياً لمعظم الأبحاث والمؤلفات في تاريخ الجزيرة الحديث ، فإن المؤرخ نفسه وسيرته العلمية كانا تقريباً من المهملين المنسيين .

وأهم من كتب عن المؤرخ ابن بسام ، الشيخ حمد الجاسر الذي ذكره في مقالته «مؤرخو نجد» ضمن بقية المؤرخين الآخرين في عدد من الصفحات لايتجاوز الأربع .[٢١] وهذه الكتابة – على قصرها – ركزت على تاريخه «تحفة المشتاق» وعلى مدى تأثره بمعاصره المؤرخ إبراهيم ابن عيسى .

أما ماكتبه الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام ، عن المؤرخ وتاريخه ، وهو في حدود الصفحتين والنصف ، فعلى اختصاره وقصره الذي أتى متفقاً ومنسجماً مع طبيعة كتابه وتقيداته ، وهو ترجمات للعلماء ، على اختصاره ، يعد ، حسب معرفتي ، أهم ماكتب عن هذا المؤرخ حتى الآن ، حيث تضمن معلومات أساسية عن ابن بسام وحياته .[٢٢]

عدا هاتين الكتابتين لم يتهيأ الاطلاع على أي شيء ذا بال كتب عن المؤرخ ابن بسام ، سوى مقالة جيدة للدكتور محمد بن سعد الشويعر ، والذي حاول فيها جاهداً ، أن يضع كثيراً من النقاط على الحروف ، إلا أنه مرة أخرى ، ركز على كتابه «تحفة المشتاق» وعلى علاقة ابن بسام بمعاصره ابن عيسى ، دون التعرض إطلاقاً إلى الجذور الأولى والمبكرة لحياة ابن بسام العلمية . وتعد هذه المقالة أجود ماكتب عن المؤرخ وتاريخه ، خصوصاً فيما يتعلق بعلاقته مع ابن عيسى ، حيث نظر إليه الباحث مدققاً بعين من التجرد والموضوعية والإنصاف .[٢٣] وعندما تطرق إليه لماماً ، بعض الباحثين الآخرين ، كان الأمر منصباً في معظمه على علاقته أو تأثره بابن عيسى[٢٤] حيث ضل الكثير منهم ، ربما لعدم إطلاعهم على الجذور والركائز الأولى لحياة ابن بسام العلمية ، ينظر إليه من خلال علاقته بهذا المؤرخ وفي ظلها ، غير محاولين إبعاده عن خفت هذا الظل إلى ضوء الحقيقة الساطع ، وتسليط هذا الضوء على الرجل ومسيرته العلمية ، لمعرفته أولاً قبل الخوض في مقارنته أو معرفة مدى تأثره بمعاصره ابن عيسى ، وهو الهدف الذي من أجله كانت هذه الدراسة . هذه الدراسة التى ستعني بتتبع مسيرة ابن بسام العلمية وثقافته منذ نبتت جذورها الأولى حتى سمقت وإلى وفاته . ولقد كان لما قاله الرحالة الإنجليزي تشارلز داوتي Charles Doughty[٢٥] عنه عون كبير في إلقاء الضوء على البراعم الأولى في حياة ابن بسام العلمية عندما كان شاباً . فحديث داوتي عن البسام ، على اختصاره

وقصره ، يعد مصباحاً منيراً لرسم الأسس الأولى لثقافة وعلم هذا المؤرخ . وماقاله عن ثقافة ابن بسام واهتماماته العلمية المبكرة ، تطلب شيئاً من التركيز عليه والتمعن فيه ، لا لأن هذه الدراسة ربما أبرزته لأول مرة ، ولكن لما يعطي من برهان صادق على أصالة ثقافة ابن بسام واهتمامه بالتاريخ منذ أن كان شاباً ، وأن هذا الاهتمام لم يكن وليداً أو نتيجة لعلاقة كانت له مع أي مؤرخ آخر ، كما اعتقد البعض . فمسيرة ابن بسام في الأدب والتاريخ كانت جادة طويلة سلكها منذ فجر شبابه ، وانصهر في بوتقة منحنياتها ، حتى ترعرع وأصبح مؤرخاً مستقلاً بذاته عمن سواه ، له سماته وصفاته الخاصة به .

المؤرخ عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن بسام ولد ، طبقاً لما أورده الشيخ عبد الله البسام ، في مدينة عنيزة عام ١٢٦٨هـ . وفي صباه تقريباً في العاشرة من عمره ، فقد والده الذي قتل في معركة أو وقعة المطر التي حدثت بين مدينة عنيزة وعبد الله بن فيصل ، وذلك في عام ١٢٧٩هـ[٢٦] . على أن في رواية الشيخ ابن بسام شيئاً من التناقض ، حيث ذكر أن المؤرخ عبد الله البسام كان عمره أربع سنوات عندما قتل والده في هذه الوقعة ، الأمر الذي يتفق فقط مع رواية الأستاذ الشيخ محمد العثمان القاضي الذي أرخ ولادته بعام ١٢٧٥هـ[٢٧] ، ولايتفق أبداً مع رواية الشيخ ابن بسام نفسه كما أرخها في ١٢٦٨هـ . ويبدو أن هناك التباساً في الأمر . على أن الشيخ حمد الجاسر يذكر تاريخاً آخر ، ربما كان حلاً وسطاً ولعله الأقرب إلى الصحيح ، ومن ثم أجدر بالأخذ به ، لا لأن الروايات الأخرى غير موثقة ، ولكن لأن هذه الرواية الأخيرة ربما نقلت أو أخذت عن المؤرخ مباشرة ومن هنا تميزت . قال الشيخ الجاسر : «هذا المؤرخ هو الشيخ عبد الله . . . . - ولد - على ما كتب به إلى الوجيه الكريم الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز بن زامل آل سليم سنة ١٢٧٠هـ - أي في السنة التي ولد فيها الشيخ ابن عيسى . . .»[٢٨] توفي والده مخلفاً أربعة أبناء هم ، حمد وعبد العزيز ثم مؤرخنا عبد الله فأصغرهم وهو عبد الرحمن . تركهم وما ترك لهم من حطام الدنيا شيئاً يذكر . فنشأ الأشقاء الأربعة نشأة عصامية ، لاشك مشوبة بطابع ذلك الزمن وماتطلبه من كد وصبر جميل .[٢٩] ومن هذا يتضح أن المؤرخ عبد الله ابن بسام بدأ مع أشقائه حياة لاجاه فيها ولامال . وما أن تمضي السنون قليلاً حتى يكتسب الاثنان معاً . لا . بل ويضيف إليهما شيئاً أرفع منهما وأشرف ؛ العلم والأدب[٣٠] .

عبد الله بن بسام ، كغيره من الكثيرين من أبناء مدينته ، كان له نصيب من التجارة والزراعة على حد سواء . على أن اشتغاله بالتجارة كما بدا ، سبق عمله بالزراعة . ولعله بعد أن أسس نفسه وحقق ربحاً وافراً من التجارة ، التفت نحو الزراعة التي لم يكن نجاحه فيها ليقل عن الأولى بحال من الأحوال إن لم يفقه . وكما كان تاجراً ناجحاً ، غدا فلاحاً نشطاً ومبدعاً .

اعتاد المؤرخون النجديون على إعطاء لمحات ، في كتبهم التاريخية ، عن حياتهم الخاصة ، وإن

كانت هذه اللمحات بسيطة ومتواضعة ، إلا أنها بلا شك مفيدة في إلقاء بعض الضوء على نمط حياتهم ومعاشهم . والمؤرخ عبد الله بن بسام ، كواحد من هؤلاء ، فعل نفس الشيء حيث تطرق في مؤلفه «تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق» إلى بعض النواحي من حياته المعاشية . ولكنه في حين ذكر بعض النتافات عن أعمال زراعته وفلاحته ، ضرب صفحاً عن أخبار تجارته مهملاً إهمالاً تاماً ذكر أي شيء يتعلق بها أو بشؤونها . ولولا ماذكره عنها الشيخ عبد الله البسام ، لربما كان من الصعب جداً معرفة أي شيء يتعلق بهذا الأمر[٣١] .

وقصة تجارة المؤرخ ابن بسام وأشقائه الثلاثة بدأت بسيطة كأي بداية في هذا المجال ، ثم تطورت وكتب لها النجاح . والقصة كما يوردها الشيخ عبد الله البسام كمايلي :

«فإن حمداً في شبابه قام بعمل تجاري بسيط بين بلدة عنيزة وبين سوق الشيوخ ونحوه من البلدان التي تورد منها البضاعة وجعل إخوته شركاء له في تجارته وهم صغار ، فلما كبروا وصار له منهم مساعد على أعماله فتح له بيت تجارة في جدة . فلما اتسعت أعمالهم نقلوها من جدة إلى البصرة ، فلما زادت فتحوا بيت تجارة آخر في الهند ، فصار حمد وعبد الرحمن يعملان في بيت البصرة بالتناوب ، وعبد العزيز وعبد الله يعملان بالتناوب في بيت الهند . فاتسعت أعمالهم وربحت تجارتهم وصاروا من أثرياء نجد المعدودين»[٣٢] .

فالمؤرخ عبد الله وإخوته لم يكتفوا بمزاولة التجارة داخل عنيزة فقط ، وإنما تعدوها ، مثل الكثير من تجار تلك المدينة في تلك الفترة ، إلى فتح مراكز تجارية في أسواق التجارة العالمية آنذاك جدة ، البصرة ، الهند . . . ، وكانوا يتناوبون في الإقامة هناك ، حيث كان حظ مؤرخنا التناوب مع أخيه عبد العزيز في الإقامة في بيت الهند كما قال الشيخ البسام وغيره .[٣٣] والحالة هذه فإن إقامة المؤرخ عبد الله بن بسام في عنيزة في هذه الفترة كانت إقامة متقطعة ، حيث استمر على هذه الحالة ، في ذهاب وإياب فترة طويلة من الزمن استهلكت جل عمره . قال الشيخ الجاسر نقلا عن عبد الرحمن بن زامل آل سليم : «. . . وكان يشتغل في التجارة في بمبى في الهند ، ويقيم هناك سنتين وثلاثا ، ويزور وطنه عنيزة فيقيم فيها كذلك . . .»[٣٤] وقد استمر على هذه الوتيرة حتى عام ١٣٢٩هـ حيث يذكر الشيخ ابن بسام بأن مؤرخنا ترك السفر والترحال ، وألقى عصا التسيار في عنيزة وذلك بعد أن كبر أبناؤه وأبناء إخوته وكفوهم مؤونة العناية ببيوتاتهم التجارية في الخارج[٣٥] .

ثم يواصل قائلاً : «أما المترجم له (المؤرخ عبد الله بن بسام) فاستقر في عنيزة وفلح بستانهم الكبير في عنيزة المسمى – المهيرية –» .[٣٦]

والمؤرخ عبد الله بن بسام ، في واقع الأمر ، قد بدأ فلاحة هذا البستان قبل هذا التاريخ بكثير ، ولكنه هنا أو بالأحرى الآن على مايبدو تفرغ لفلاحة هذا البستان أو القليب كما سماه في

تاريخه . فقبل هذا التاريخ بأكثر من ثلاثين سنة تعرض لذكر هذا البستان أو القليب في تاريخه ، حيث يقول في أول حدث سجله لسنة ١٢٩٨هـ مايلي : «وفي هذه السنة ابتدأنا نحن آل محمد بن عبد العزيز بن حمد آل بسام في غرس قليبنا المسماه الموبهرية المعروفة في بلد عنيزة» .(٣٧)

ويفهم من هذا الخبر أنهم بدأوا في غرس شجر النخيل في هذا البستان . وبعد هذا بأكثر من خمسة عشر عاماً ، يورد خبراً آخر عن بستان الموبهرية هذا ، حيث يذكره ضمن حوادث سنة ١٣١٤هـ قائلاً : «وفي ذي القعدة غرسنا أثل قليبنا المعروفة في بلد عنيزة المسماه الموبهرية .»(٣٨) وربما زرع الأثل محيطاً بالمزرعة كالسياج لها .

ونخيل السكري ، معروفة ومشهورة في القصيم وبالذات في مدينة عنيزة ، وتعتبر من ذوات القيمة العالية جداً(٣٩) ، ولايفوت مؤرخنا عبد الله بن بسام أن يطعم مزرعته بهذا النوع الكريم من النخل إذ يورد في تاريخه ضمن حوادث عام ١٣٢٣هـ هذه العبارة : «وفيها غرسنا سكري قليبنا الموبهرية الشمالي .»(٤٠)

بهذا الشكل المقتضب ، تحدث البسام عن زراعته أو فلاحته ، شأنه في ذلك شأن بعض المؤرخين النجديين الآخرين ، وخصوصاً أحمد المنقور الذي يشابهه في هذا المجال إلى حد كبير(٤١) .

ويبدو أن المؤرخ عبد الله بن بسام ماكان ليذكر أي شيء عن بستانه أو فلاحته ، تماماً مثل تجاهله لذكر تجارته ، لو لم تكن طريقة اتبعها في تاريخه واختطها لنفسه وهي دأبه على ذكر البساتين والفلاحات ، ليس فقط تلك التي كانت تعود له ، وإنما تلك التي كان يملكها الآخرون أيضاً ، ولعله ماذكر إلا البارز والمشهور منها فقط .(٤٢) وهو في تعرضه لها يقتصر على ذكر تأسيسها أو بداية غرسها وفلاحتها . ولعله رأى في ذلك حدثاً يستحق التدوين ، مثله مثل تأسيس القرى والبلدان وبداية عمارتها . وتَعَرُّض المؤرخين النجديين ، عموماً ، لذكر المزارع والفلاحات في مؤلفاتهم التاريخية أمر مفهوم ومقدر جداً إذا ماأخذ في الحسبان ذلك الدور الأساسي والفعال الذي كانت تلعبه تلك المزارع والفلاحات في حياة الناس الاقتصادية والمعاشية في ذلك الزمن ، مما جعل تأسيسها أو بداية غرسها أمراً يستحق الذكر والتنويه ، وهو في واقع الأمر كذلك في أي زمان أو مكان .

وعبد الله بن بسام ، في بستانه الموبهرية ، لايكتفي بجلب وغرس شجر النخيل الموجود في منطقته فقط ، وإنما تعداها إلى تلك الأنواع الجيدة خارج الحدود ، مستفيداً بذلك من أسفاره خارج عنيزة ، بل خارج الجزيرة كلها . أجل ، فلقد كان فلاحاً سباقاً ، بل كان رائداً في حقله جلب لأول مرة نوعاً رفيعا من النخل إلى مدينة عنيزة . وعلى عمله هذا لاشك يشكر ويثاب حتى الآن . يورد الأستاذ محمد بن ناصر العبودي نصاً على طرافته يعد عظيماً ، إذ وضع صاحبه في مصف أصحاب البدايات الحميدة التي لازالت تثمر وتفيد وتحفظ ذكرى ابن بسام على مر الأجيال والعهود .

يقول الأستاذ العبودي ، وهو في صدد حديثه عن أنواع النخل والتمور في منطقة القصيم ،

مايلي عن نخلة البرحية : «وكانت في أول الأمر قليلة جداً في القصيم . بل لم تكن معروفة فيه . وأول من أحضرها إليه فيما بلغني هو عبد الله بن محمد البسام أحضر (فرخين) اثنين من البصرة جعلهما في زنبيلين وحملهما على بعير وجعل يسقيهما بالماء طول الطريق يحمل لهما الماء ، فلما غرسهما في نخلة في عنيزة عاش أحدهما ومات الآخر . فكل مافي عنيزة في الأول كان منه وكان ذلك في حدود عام ١٣١٠هـ . إلا أنه بعد أن عرف الناس فائدة البرحية ، ورغبوا في المزيد من غراسها فلم يجدوا مايكفيهم ، أخذوا يجلبون ما يحتاجون إليه من البصرة .

والآن وبعد مضى مايقرب من ٩٠ عاماً على أول غرسة للبرحية في القصيم ، نجدها قد انتشرت في أنحائه ، إلا أنها لاتزال في عنيزة أكثر وأهل عنيزة يقدرون تمرها أكثر من غيرهم»(٤٣) .

وكمعظم أهل هذه المنطقة ، بدا المؤرخ عبد الله بن بسام مهتماً بشؤون الفلاحة والزراعة ، لابل خبيرا بها ، مما جعل هذا الأمر ينعكس على ما دونه من معلومات في تاريخه ، حيث يورد بعض الأخبار المتعلقة بهذا الأمر ضمن حوادث سنة ١٣٣٥هـ . وعلى خلاف عادة غالب المؤرخين النجديين الذين اعتادوا أن يوردوا مثل هذه الأخبار في ذيل تعداد حوادثهم نجد أن ابن بسام ، ربما لاهتمامه بها ، يبدأ بها حوادث ذلك العام قائلاً : «وفيها كثرت الأمطار والسيول وعم الحياء جميع بلدان نجد وأخصبت الأرض وكثرت الكمأة واختلفت ثمرة النخيل بالشيص ، واختلفت زروع بعض البلدان بالصفار ، (وسبب اختلاف ثمرة النخيل أنها من أجل الدفء بادرت بالطلاع ولقح كثيرين في آخر المربعانية وأول الشبط ، وقد عم ذلك جميع نجد والبصرة والأحساء»(٤٤) .

وإذا كانت هذه السنة ، وهى سنة خصب ، بنتائجها الإيجابية والسلبية أيضاً لم يهمل تدوين حوادثها المؤرخ ابن بسام ، فإن سنة أخرى كانت أشد وطأة وإيلاماً على المزارعين والفلاحين ، بل وعموم الناس جميعاً ، إنها سنة جفاف وقحط ضربت نجد وجللت حياة الكثير من الناس برداء من البؤس والكآبة جعلته لايكتفي بتدوين حوادثها فقط ، ولكن يختمها بالتضرع إلى الله بأن يرحم العباد ويحيي البلاد . يقول ابن بسام ضمن حوادث سنة ١٣٣٩هـ : «وفي هذه السنة قلت الأمطار في نجد وأجدبت الأرض واشتد الغلاء : بيعت الحنطة الصاع بريال ، والتمر ثلاث أوزان بريال ، والسمن الوزنة بريالين وثلث ريال ، وقحط الناس واشتدت المؤنة على الفلاحين بسبب غلاء العلف والسواني بحيث إن ناقتين بيع كل واحدة منهما بمائتين وثلاثين ريالاً وبيع القت ثلاثة عشر وزنة بريال والعشب اليابس خمس أوزان بريال ، واستسقوا أهل بلدان نجد فلم يسقوا . ونرجو من الله الكريم أن يلطف بخلقه ، وأن يرحم العباد بمنه وكرمه . »(٤٥)

ومن دعاء المؤرخ الأخير ، قد يستفاد بأنه دون هذه المعلومات أو الحوادث في نفس العام الذي حدثت فيه .

ويمضى الزمن بالمؤرخ ابن بسام وبمزرعته التى لازال يطور فيها ويوسع ويغرسها شجراً ونخلاً

لتتحول إلى مزرعة عظيمة عدت واحدة من مزارع مدينة عنيزة الكبرى ، ففي عام ١٣٤٠هـ ، وطبقاً لما ذكره الشيخ البسام ، يحفر المؤرخ عبد الله بن بسام بئراً عميقاً في بستانه لينهل منها ماءً حلواً عذباً[٤٦] . وتصادف تلك السنة أن يزور مدينة عنيزة فيلسوف العرب ومؤرخهم أمين الريحاني . والمؤرخ عبد الله بن بسام ، كأحد وجهاء المدينة وأدبائها ، ونظراً لهذه الرابطة الأدبية التي لاشك ربطت أو قربت بين الاثنين ، فإن المؤرخ يدعو الفيلسوف إلى بستانه .

وهناك يعطينا أمين الريحاني بأسلوبه السهل العذب وصفاً رائعاً لهذه البئر العذبة . ولكن ، حتى تكتمل القصة والمراد منها ، نبدأ بماقاله عن أمير عنيزة عبد الله السليم وبساتينه .

يقول الريحاني : «والأمير عبد الله مثل عمه عبد العزيز مزارع كبير يشتغل ساعات الفراغ في بساتينه . غير أنه مثل كل عربي لايزال على شغفه بالزراعة ، أسير تقاليدها القديمة . سألنا عن الآلات البخارية لرفع المياه والري ، ثم قال : سمعنا أن السلطان عبد العزيز يبغي استخدامها في الحسا . فمتى فعل نتبعه إن شاء الله . الناس على دين ملوكهم – وعلى طريقتهم في الزراعة أيضاً .

وهذا عبد الله بن محمد آل بسام يثبت ما أقول . فهو على علمه وأدبه وروحه العصرية في كثير من أمور الحياة ، لايتقدم طويل العمر في الرياض . لعبد الله أرض خارج المدينة حفر فيها قليباً عمقه ثمانون قدماً وعرضه خمسة وعشرون بعشرين ، يشتغل في رفع المياه منه عشرة جمال ، وهو مطوي بالحجارة محكم البناء . كلفه أربعمائة ليرة انكليزية ، ويكلفه رفع المياه يومياً ليرة واحدة في الأقل . أما ثمن الآلة البخارية فلايزيد على نصف كلف القليب ، وثمن البترول أقل من أجرة الجمال . وعبد الله البسام الذي ساح في مصر والعراق والهند يدرك مافي الاستعاضة بالبخار من الاقتصاد والتوفير والسرعة في العمل ، ولكنه عربي . والعرب في الزراعة على طريقة ملوكهم وأجدادهم .»[٤٧]

فالريحاني يرى أن ابن بسام على علمه وأدبه وروحه العصرية في كثير من أمور الحياة ، إلا أنه عربي ، والعرب كما يقول في الزراعة على طريقة ملوكهم وأجدادهم . الريحاني بطريقته وأسلوبه البديع هذا يتعجب ويتساءل وربما ينتقد لماذا لم يدخل هؤلاء أو يستخدموا الآلات البخارية لرفع المياه والري ، ويجيبه على تساؤله هذا أمير عنيزة عبد الله بن سليم إجابة على بساطتها ربما أقنعته .

وفي الواقع إنه لأمر يدعو إلى الدهشة والعجب ، خصوصاً بالنسبة للمؤرخ عبد الله بن بسام صاحب الأسفار الكثيرة والأفق الواسع والذي عاش فترات من الزمن لايستهان بها في أمصار كانت على جانب كبير جداً من التطور والتحضر آنذاك كالعراق والهند وغيرها . ومع هذا ماعاد إلى مدينته في سفرة من أسفاره وفي معيته آلة من تلك الآلات البخارية التي لايتوقع إلا أن يكون قد رآها في بعض تلك البلدان . ابن بسام ماعاد بآلة بخارية ، وهو الذي عاد مرة وبحوزته فرخي نخل برحي على صعوبة ومشقة حملهما في ذلك الزمن . إن إنساناً فعل مثل هذا الأمر وتجشمه لايشك المرء في أن أمر

الآلة البخارية ورد على ذهنه وفكر فيه وفي إحضارها إلى قلب الجزيرة العربية . ولكنه التاريخ وحقبات الزمن وظروفها . فلعله فكر في الآلة وفي إحضارها ، ولكن قبل ذلك فكر في صيانتها والعناية بها . ومن أين يتأتى صيانة لآلة كتلك في جزيرة ربما كانت لاتملك من التقنية في هذا المجال إلا ذكرها . وبالتأكيد لو تمكن ابن بسام من التغلب على تلك الظروف والعقبات وأحضر هذه الآلة إلى بستانه في عنيزة ، لعدت له سابقة ويد بيضاء على مر الزمن . الزمن الذي يقف الإنسان ، أحياناً عاجزاً أمام حتمياته طبقاً لفتراته ومعطياته . وإلا فإن الآلة البخارية كانت محط تفكير أهل هذه المدينة قبل مجيء الريحاني إليها بخمسة وأربعين عاماً ، حيث طرح العنيزيون على بساط البحث مع الرحالة الإنجليزي داوتي ، أمر هذه الآلة وإمكانية استخدامها والاستفادة منها .(٤٨)

ولكن بالرغم من عدم توافر مثل هذه الآلة البخارية ، فإن مزرعة ابن بسام أو بستانه المويهرية تتطور وتزدهر وتكثر بها فوراه الأشجار من الفواكه والنخيل(٤٩) ، ويجري بها الماء العذب النمير الذي يفيض عن استخدام وحاجة هذا البستان ، ليصبح مورداً يستفيد منه الآخرون(٥٠) .

ويقول الدكتور الشويعر عن هذه البئر التي وصفها الريحاني مايلي : «ومن هنا يبدو أن هذا البئر غير البستان المشهور لآل بسام والمعروف بالمهيرية ، والذي ذكر المؤلف في أحداث عام ١٢٩٨هـ . أنهم بدأوا في غرسها عندما قال : في سنة ١٢٩٨هـ ابتدأنا نحن آل محمد بن عبد العزيز بن حمد بن بسام في غرس قليبنا المسماه المويهرية المعروفة في بلد عنيزة . وهذه البئر عرفت فيما بعد عند بعض الناس ، «أم المويهرية أو أم المهيرية» ولا خلاف في هذا .(٥١)

ولكن الذي يفهم من رواية الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام ، ومن طبيعة الأشياء ونموها وتطورها ، أن هذه البئر قد حفرت في نفس البستان ، بستان (المويهرية) ، الذي نما واتسع وكثر غرسه وأصبح بحاجة إلى بئر عظيمة كهذه . ووجود أكثر من بئر في البساتين الكبيرة أمر شائع ومألوف . وكون المؤرخ أشار إلى بداية غرسها في حوادث ١٢٩٨هـ لايمنع حفر بئر جديدة في البستان نفسه فيما بعد . وعلى كل ، فقد ذكر هذا البستان في سنوات لاحقة لعام ١٢٩٨هـ ، كما تقدم .

وقد أجمعت المصادر التاريخية على الإشادة بطباع وسجايا ابن بسام وأثنت عليه ، ونعتته بأوصاف جميلة حميدة . أثنى عليه معاصروه كأمين الريحاني ، وعبد الرحمن السليم ، وبعدهم الشيخ عبد الله البسام ، وقبل هؤلاء جميعاً ، أطراه الرحالة الإنجليزي داوتي ، وأثنى عليه ثناءً عطراً ، كما سيذكر فيما بعد .

وصفه الشيخ البسام بخيار مايتحلى به أي إمرئ شهم من رفيع الصفات وكريمها ، المؤرخ عبد الله بن محمد البسام ذا النفس الطيبة ، والصدر الرحب ، الجليس الأنيس ، تزينه بشاشة في الوجه ، وطلاقة في المحيا .(٥٢) فلا عجب أن نقل الشيخ الجاسر عن معاصر المؤرخ ابن بسام الشيخ

عبد الرحمن الزامل السليم قوله عنه : «نعم الرجل ديناً وعقلاً وأدباً»[٥٣] .

قال الشيخ البسام : «ولم يزل على أحواله الحميدة وصفاته الطيبة حتى توفاه الله في عنيزة في بستانه عام ١٣٤٦هـ»[٥٤] .

وبالرغم من أن الشيخ الجاسر ، نقلاً عن الشيخ السليم ، أرخ وفاته في سنة ١٣٤٨هـ[٥٥] ، إلا أن رواية الشيخ البسام تتفق مع ماجاء على طرة تاريخه المخطوط «تحفة المشتاق» ، والتي نقلت عن بعض أهل المؤرخ أنفسهم . كما قال ناسخ المخطوطة نور الدين شريبه ، مما يرجحها .

وطالما أن الحديث هنا تطرق إلى بعض أهل المؤرخ ، أو ورثته ، وكذلك ناسخ المخطوطة ، فلعل من المستحسن إيراد ماقاله الدكتور الشويعر في هذا الشأن ، ومن ثم مناقشته .

يقول الدكتور الشويعر : «وإذا كان المؤلف رحمه الله ، قد خلف نتاجاً علمياً ، هو ماسوف نتحدث عنه في عرضنا له مجملاً ، فإن الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام يذكر بأن أولاده لم يخلفوا إلا حفيدين يقيمان في البصرة ، وله بنات لهن أبناء .

وهذا القول يزيل مايتبادر من لبس لمن يقرأ طرة المخطوطة ؛ بأن له أولاداً في عنيزة ، فالمدرس المصري الذي نسخها : نور الدين شريبة قد قال : نقله عن الأصل الخطي المحفوظ لدى ورثة المؤلف ، وهو بخط نور الدين شريبة . وقد يكون هؤلاء الورثة أقاربه أو بني عشيرته ، أو أحفاده من بناته ، لكن من الناحية الشرعية لايعتبر الورثة إلا الأولاد الذين أشار إليهم الشيخ عبد الله بن بسام بأنهم في البصرة ، وهذا ليس مقام تحقيق الورثة ، أو مناقشتهم حسب رأي الناسخ . كما أنه أوضح في نهاية المخطوطة عن نفسه ، بأنه كان مدرساً بالمدرسة الثانوية في عنيزة عام ١٣٧٥هـ . والشيخ عبد الله بن بسام ألف كتابه الذي طبع عام ١٣٩٨هـ . بمكة في طبعته الأولى ، مما يدل على أن رأيه أكثر دلالة ، ولعل الناسخ يريد بالورثة البنات إذا كان منهن من هو على قيد الحياة في وقت النسخ ، أو أولادهن ؛ ذلك أن أولاد البنات لايعتبرون ورثة مع وجود الأبناء الذكور . فلعل الناسخ يريد بالورثة غير من عنى الشيخ عبد الله ، وأنهم ليسوا ورثة مباشرين ، أو يريد بذلك الأقرباء ، أو لأنه تصور أن أبناء البنات إذا قالوا له هذا تأليف جدنا ، أنهم أحفاده وورثته .»[٥٦]

في واقع الأمر أن نور الدين شريبة ، ناسخ المخطوطة ، لم يشر إلى هؤلاء الورثة بشكل عام ومطلق فقط ، وإنما حددهم وعينهم حيث قال في آخر المخطوطة : «هذا آخر ماوجد من المخطوطة الوحيدة المحفوظة لدى ابن المؤلف في بلدة عنيزة من منطقة القصيم في نجد من المملكة العربية السعودية . فرغت من نقلها مساء السبت في الثامن عشر من شهر شعبان في سنة خمس وسبعين وثلثمائة وألف من الهجرة . . . وذلك حين كنت منتدباً من قبل وزارة المعارف للتدريس بالمملكة العربية السعودية ، وكان مقري يومئذ عنيزة حيث كنت مدرساً بالمدرسة الثانوية .

وقد استعنت في الحصول على هذا الأصل المخطوط بالشيخ العالم العلامة عبد الرحمن آل سعدي . . .» .[٥٧]

هذا النص يثبت بما لايدع مجالا للشك . بأن الناسخ نور الدين قد حصل على أصل المخطوطة من ابن المؤرخ مباشرة وبمساعدة سماحة الشيخ ابن سعدي ، وابن المؤرخ هذا ، عند نسخ المخطوطة ، كان حياً يرزق ، ويقيم في مدينة عنيزة ، وهو الأمر الذي أكده الناسخ مرة أخرى حيث قال ضمن دراسة المخطوطة المختصر : «المخطوطة التي نقلت عنها هذا التاريخ محفوظة لدى ابن المؤلف – وهو لايزال على قيد الحياة – في بلده وبلد أبيه عنيزة حتى سنة ١٩٥٥م = ١٣٧٥هـ . من بلاد منطقة القصيم إحدى مناطق نجد في المملكة العربية السعودية»[٥٨] .

ومن هذين النصين يتضح أن الورثة الذين عناهم الناسخ كانوا هم فعلاً الورثة الشرعيين ، حيث نص على أحد أبناء المؤرخ بعينه . ونور الدين شريبة كان نسخه للمخطوطة في سنة ١٣٧٥هـ . والشيخ عبد الله البسام كان نشره لكتابه «علماء نجد خلال ستة قرون» في سنة ١٣٩٨هـ . وبين هذين التاريخين حقبة من الزمن ، تقارب ربع قرن يموت فيه فئام من الناس ويحيا آخرون ، ويكون فيه من الأسفار والانتقال ماشاء الله أن يكون . ومن هذا يتضح أن كلام كلا الرجلين صحيح وليس فيه أي تناقض . فلعل الانتقال إلى البصرة ، والحالة هذه ، كان بعد فترة النسخ . ولايتوقع من عالم أزهري كالناسخ نور الدين شريبة أن يخلط في علم المواريث ، لاسيما وقد أشار صراحة إلى واحد من هؤلاء وهو ابن المؤلف .

وعلى كل ، فمثل هذا الأمر الجانبي لايقلل من بحث رفيع كهذا .

إنه ليتراءى للمهتم أو الدارس لتاريخ الجزيرة العربية وبالذات لتاريخ وسطها أو قلبها نجد ، يتراءى له ثلاث مجموعات أو فئات من المؤرخين النجديين الذين عكفوا على كتابة هذا التاريخ وتدوينه ، كل على طريقته وحسب طاقتة . هذه المجموعات الثلاث أتت في فترات شبه متتالية ، لعلها بدأت في النصف الآخر من القرن العاشر الهجري واستمرت حتى منتصف القرن الرابع عشر أو بعده بقليل ، أي إنها غطت فترة زمنية امتدت حتى قبل قيام الدولة السعودية الأولى بزمن غير قصير ، واستمرت إلى مابعد تأسيس الملك عبد العزيز للمملكة العربية السعودية ، أيضاً بزمن غير قصير . بدأت سلسلة المؤرخين هذه بصاحب السبق الأول في هذا المجال المؤرخ الشيخ أحمد بن بسام من أشيقر في الوشم وأختتمت أو توجت بالمؤرخ الناقد الأستاذ مقبل الذكير من عنيزة في القصيم ، وبين هذا وذاك برز من هؤلاء كبارهم كابن بشر وابن غنام .

وأبرز مؤرخي المجموعة الأولى ، بالإضافة إلى ابن بسام الشيخ أحمد المنقور من حوطة سدير ، والشيخ محمد بن ربيعة العوسجي من ثادق والشيخ عبد الله بن عضيب من عنيزه .[٥٩] هؤلاء هم أصحاب البدايات الأولى الرائدة في كتابة وتدوين تاريخ وسط الجزيرة في عصرها الحديث . هذه البدايات على بساطتها وضآلة حجمها ، كانت ولاشك اللبنات الأولى والتراث المنير الذي اقتفى أثره من تلاهم من المؤرخين . ولعل بساطة مؤلفاتهم في التاريخ وقلة محتواها تعكس ، أو ربما كانت نتيجة

حتمية لما تميزت به فتراتهم من رتابة في الحياة وبساطة ، وخلوها من أي أحداث جسام . تلك الأحداث التي كانت من نصيب مؤرخين آخرين تلوهم كابن بشر وابن غنام . وتستمر سلسلة المؤرخين لتأتي الفئة الثالثة منهم والتي يتربع على قمتها ولاشك العالم الورع والمؤرخ القدير الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى الذي قال عنه البسام : «لاأعرف أحداً من علماء نجد خدم تاريخ نجد مثله وتعب في تقييد أخباره وتسجيل حوادثه وضبط أنسابه حتى عد - بلا مراء - مرجعاً فيه ...»(٦٠) . كما يشاركه في هذه الصدارة مؤرخنا ، المعنى بهذه الدراسة ، عبد الله بن بسام ومعاصره المؤرخ مقبل الذكير(٦١) .

وفترة هؤلاء المؤرخين هامة كفترة سابقيهم ابن بشر وابن غنام ، بل إن هذه الفترة حفلت بالحوادث العظام . إنها فترة الملك عبد العزيز . فترة التوحيد والتأسيس . توحيد معظم أقاليم الجزيرة الهامة وتأسيس صرح المملكة العربية السعودية ، وهذه الأهمية ولاشك انعكست على مؤلفاتهم في التاريخ والتي أصبحت هامة بما احتوته من معلومات وأحداث مصيرية كبرى .

وهؤلاء المؤرخون ومن سبقهم ، لم يكتفوا بتدوين ماتهيأ لهم من أحداث عصرهم ، بل تعدوها إلى كتابة ماتوافر لهم من أعمال سابقيهم ، على أنهم أحياناً لايذكرون المصدر بشكل صريح ، وفي أغلب الحالات يضيفون هذه المعلومات ويضمنونها كتبهم دونما نقد أو تصحيح . وإن كان أبدى ابن بشر من النقد شيئاً فيما يتعلق بعمل المؤرخين السابقين له ، وذلك فيما يختص بنقص وخلل في بعض الحوادث التاريخية(٦٢) . كما أن إضافات المؤرخ ابن عيسى فيما يتعلق بالأنساب تعد ولاشك فائدة ذات جدوى في معرفة الرجال وأصولهم . على أن أميز هؤلاء وأبينهم من ناحية النقد ، بما فيه من جرح وتعديل أو شرح وتحليل هو المؤرخ مقبل الذكير(٦٣) .

بعد هذه التوطئة العاجلة لهؤلاء المؤرخين ، تجدر الإشارة هنا بشكل سريع إلى خلفياتهم الثقافية ، وبمعنى أدق إلى أي من العلماء ينتمون . هل كانوا مثلاً ، بجانب التاريخ ، علماء في علوم الشريعة ، أم كانوا أدباء مؤرخين فقط ؟ أم جمعوا بين الحسنيين ؟ وثقافة هؤلاء وعلومهم ليست مجال هذا البحث ، ولكن سيطرق هذا المجال فقط إلى القدر الذي يمكن من معرفة أو تلمس أين يقف المؤرخ عبد الله بن محمد بن بسام ثقافياً وعلمياً بين هؤلاء المؤرخين جميعاً . لا من حيث المقارنة والمفاضلة ، وإنما من ناحية التخصص فقط ، ومعرفة إلى أي من العلوم ينتمي .

فالمؤرخون النجديون القدامى كأحمد بن بسام وابن عضيب والمنقور والعوسجي كانوا علماء فقهاء ، وكان لهم مايمكن أن يسمى بهوايات في تدوين بعض حوادث التاريخ(٦٤) . وقيل هنا هوايات ، لأنهم ربما أرادوا بهذه التدوينات مذكرات خاصة بهم ولهم ، فأتت مؤلفاتهم صغيرة بسيطة يصح عليها وصف الشيخ البسام وينطبق «. . . نبذاً تاريخية وترسيمات إخبارية لعلماء نجد لاتعطي صورة كاملة لما أشارت إليه من الأخبار وإنما هي فقرات وإشارات أمليت لتذكر كاتبها ولاتكفي قارئها .»(٦٥)

فهم علماء فقهاء قبل التاريخ . على أن تاريخ الشيخ أحمد المنقور أشتهر الآن ربما أكثر من كتابه الفقهي[٦٦] . ولعل مرد هذه الشهرة كونه عملاً فريداً رائداً في هذا الحقل .

أما فيما يتعلق بالمؤرخين الكبيرين ابن غنام وابن بشر ، فالأول يعد ولاشك عالماً من علماء الشريعة ، كما كان واحداً من علماء وأساتذة اللغة والنحو المعتبرين[٦٧] . ولكن بالرغم من هذا وذاك ، اشتهر وعرف كواحد من المؤرخين الكبار . أما ابن بشر فبالرغم من أن دراساته ، وتتبع أسماء مشايخه توحي كلها بأن اتجاهاته كانت نحو دراسة الشرع الشريف واللغة العربية[٦٨] ، إلا أن إنتاجه العلمي ومؤلفاته كانت في علوم أخرى يأتي التاريخ على رأسها . فهو أحد كبار مؤرخي قلب الجزيرة إن لم يكن أكبرهم جميعاً . ويرتبط اسمه بتاريخ نجد ارتباطاً ، وثيقا ، فما من ذاكر لتاريخ نجد ، إلا ويتبادر إلى ذهنه اسم المؤرخ ابن بشر ومؤلفه «عنوان المجد» . الأمر الذي جعله مؤهلا لأن يعد عمدة المؤرخين النجديين وشيخهم .

أما ثالث هؤلاء ، فهو المؤرخ محمد بن عمر الفاخرى الذي قيل عنه أنه أحد أدباء نجد في زمانه ، وأن له معرفة بالشعر[٦٩] كما جاء في مقدمة إحدى نسخ تاريخه المخطوط : «فهذه الورقات وجدت في كتب الأديب الفاضل محمد بن عمر الفاخري . . .»[٧٠] . وقوله «كتب الأديب» ربما أوحت بأنها كتب أدبية كما لو قيل «كتب الفقيه» والذي قد يفهم منه أنها كتب فقهية . فعسى أن يكون أديبا وهذه مكتبته . وحيث إنه لم يعثر على أي نص يثبت صلته بتأليف أي من العلوم الشرعية سوى ماذكر عن أنه «جمع كتاباً من الأدعية النبوية ، ولكنه تلف بسبب الأرضة ولم يبق منه إلا ورقات قليلة . . .»[٧١] فالفاخرى ، والحالة هذه يعد أديباً مؤرخاً .

أما المؤرخ ابن عيسى ، فقد كان أحد علماء الشريعة الفطاحل . يشهد بذلك تسلسل مشايخه الذين أخذ عنهم العلم وتلامذته الذين تعلموا على يديه ، وما اتصف به هؤلاء جميعاً ، وماكانوا عليه من علم واسع في علوم الشرع الشريف وفروعه[٧٢] . وكما كان بارعاً ومتميزاً في العلوم الشرعية ، كان كذلك في علم التاريخ والأنساب وفي الشعر أيضاً ، حتى عد بحق «أديب الفقهاء وفقيه الأدباء»[٧٣] .

أما الخلفية الثقافية أو العلمية لآخر مؤرخي هذه الفئة وهو الأستاذ مقبل بن عبد العزيز الذكير ، فإنه بعد أن تعلم مبادىء القراءة والكتابة والحساب في بلدته عنيزة ، سافر إلى الكويت ليكمل تعليمه في الخط والحساب[٧٤] . ويقول الشيخ البسام عنه مايلي : «كما أكثر المطالعة والقراءة لاسيما في كتب التاريخ والأنساب والعلوم السياسية حتى عد من المثقفين قبل أن يعرف الناس في نجد الثقافة .»[٧٥]

ولعل البسام هنا قصد أن مقبل الذكير تثقف بثقافة سبق بها زمنه وعصره كعادة بعض النابهين البارزين من الأدباء والعلماء في كل أمة وزمن ، وهذه الصفات التى اتصف بها هذا المؤرخ ، هي

صفات تنطبق على صفوة أدباء ومثقفي الوقت الحاضر ، ولا غرابة في ذلك حيث إن هذا المؤرخ هو أقرب المؤرخين إلى فترتنا .

والآن أين يقف المؤرخ عبد الله بن محمد بن بسام بين هؤلاء المؤرخين ؟ وماهي خلفيته الثقافية ؟ هل كان واحداً من بين هؤلاء المؤرخين ذوي الخلفية الفقهية أو الشرعية بوجه عام ؟ . أم كان ، كالبعض الآخر منهم ، مؤرخاً يرتكز إلى خلفية من الأدب والشعر ؟ أم جمع بين الحسنيين كالمؤرخ الشيخ إبراهيم بن عيسى . أم كان ذا ثقافة عصرية كمعاصره وابن بلدته المؤرخ الأستاذ مقبل الذكير ؟

هنا سنحاول الإجابة على هذه الأسئلة بقدر الإمكان وبقدر ماتسعف به المعلومات القليلة المتوافرة عنه في هذا المجال . ثم سنحاول استقراء مؤلفه التاريخي «تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق» عله ينبئنا ببعض ماقد يمكن من رسم أو محاولة رسم صورة ثقافية لهذا المؤرخ وإلقاء ضوء على هويته العلمية .

إذن بما جاء في مؤلفه هذا أو كتابه وما تهيأ من النتف القليلة المكتوبة عنه هنا وهناك وفي ضوءيهما واستنتاجاً منهما ، ستحاول هذه الدراسة تحديد الخلفية العلمية لهذا المؤرخ ورسم صورة واضحة عنه قدر الإمكان . على أن هذه الصورة لن تكون تامة الوضوح ، فلربما اعتراها أو حف بها بعض القصور وذلك لفقدان بعض مؤلفات ابن بسام[٧٦] .

ونبدأ رحلتنا مع المؤرخ عبد الله بن محمد بن بسام ، وقد أوصلته السنون إلى خريف العمر . من هذا الخريف قد نطل أو نشرف على ماضي مؤرخنا لنستطلع أيام الربيع أو الشباب وماكان عليه من ثقافة وعلم آنذاك .

مضت السنون بالمؤرخ الشيخ ابن بسام حثيثة كما تفعل مع جميع أبناء البشر وسائر المخلوقات . وهاهو العام ١٣٤١هـ يطل وقد بلغ مؤرخنا من العمر عتيا . هو ذا الفيلسوف والرحالة أمين الريحاني يقبل على ذلول طاويا بساط الصحاري والفيافي حثيثا ليصل إلى مدينة عنيزة التي يطيب له فيها المقام لما لاقاه من ود وإكرام ، وبالذات من مثقفيها وعلمائها الكثر في ذلك الزمن .

لقد كان من بين هؤلاء المرحبين المكرمين لهذا الفيلسوف ، المؤرخ الشيخ عبد الله بن محمد بن بسام . وهاهو ذا في جلسة مع الريحاني ربما في «قهوته» في داخل مدينة عنيزة أو في مزرعته «المويهرية» خارج المدينة . لقد دق هذا الفيلسوف لمؤرخنا ابن بسام ناقوس الذكرى . ذكرى الماضي البعيد . زمن الشباب وأيامه العذبة ، فأثار شجونه وأباح مكنون صباه . لقد ذكر أمين الريحاني المؤرخ عبد الله بن بسام بالرحالة الإنجليزي تشارلز داوتي **Charles Doughty** ، أو خليل كما سمى نفسه وعرفه الناس ، ذكره به وبفترة زيارته لمدينة عنيزة . ذكره أيضاً بصديقه في تلك الأيام ؛ أيام الشباب والتفتح بالأديب عبد الله الخنيني والذي كان الساعد الأيمن لذاك الرحالة الغريب . فماذا

قال ابن بسام ؟ قال ، وماظني أن قالها إلا بصوت التأثر والشجن . قال ابن بسام مخاطباً الريحاني : «كنت شاباً يوم جاء (خليل) إلى عنيزة . . »[٧٧] . أجل لقد صدق ابن بسام إذ كان شاباً في شرخ الشباب لم يتجاوز عمره عند ذاك الخمسة والعشرين ربيعاً .[٧٨]

وإذا كان الريحاني أحب المدينة وأحبه أهل المدينة . أعجب بأدبهم وذوقهم الرفيع ، وبادلوه نفس الإعجاب . شغف فيلسوف الفريكة بعنيزة وبأهل عنيزة . وانبهر بما تحلى به القوم من علم عظيم وأدب رفيع ، وفوق هذا وذاك سماحة في الخلق وتواضع جم . تأثر بهذا كله إلى الدرجة التي جعلته يودع مدينة عنيزة بكلمات مؤثرة معبرة لاتوحي بغير ألم الفراق ووحشته . قال الريحاني : «. . . مليكة القصيم . عنيزة حصن الحرية ومحط رحال أبناء الأمصار . عنيزة قطب الذوق والأدب ، باريس نجد . . . . وفي عنيزة أسر قديمة عريقة بالنسب والفضل وقد ساح آباؤها في البلدان القصية والأمصار شرقاً وغرباً فزادتهم السياحة لطفاً واتضاعاً ، فرفعوا الضيافة إلى مقام تنفتح عنده أبواب البيوت والقلوب معاً . أجل ، إن الغريب لينسى في هذه المدينة كونه غريباً ، فسواء أكان مسلماً أم كافراً ، موحداً أم مشركاً ، فهو يشعرها ههنا أنه بين أناس ألفوا مثله وألفوا فوق ذلك إكرام الضيف أياً كان ، فيستأنس أيما استئناس ويلبي دعواتهم مسروراً شاكراً»[٧٩] .

وإذا كانت هذه هي علاقة أمين الريحاني بهذه المدينة ، علاقة بل رابطة تجللها الألفة والمودة ، ويعبق منها البشر والحبور ، فإن الرحالة الإنجليزي داوتي Doughty أو «خليل» لطبع فيه ماكان بالكاد كذلك إذ لم تنسجم علاقته بهذه المدينة كل الانسجام كما كانت بالنسبة للريحاني أو غيره من الزوار الأجانب كهاملتون مثلاً .[٨٠] حيث سيطر على بعض جوانبها شيء من الشك والريبة على الأقل من جانب هذا الرحالة[٨١] . ولعل في تعصبه ، وتعصبه الشديد[٨٢] وعدم مبالاته[٨٣] أحياناً العامل الأساسي في ذلك . على أن هذه العلاقة في مجملها لم تكن كذلك دائماً . ففي معظم جوانبها كانت هناك روابط حميمة شيمتها التسامح والإكرام . فبالرغم مما جبل عليه داوتي من غرابة في الطبع ، وتعصب في الرأي ، بالإضافة إلى قصور واضح في التعامل مع المجتمع حوله حتى في بلده الأصلي[٨٤] . بالرغم من هذا كله ، والبون الشاسع بينه وبين الريحاني الذي سمت سجاياه ورقت به إلى سمات وسجايا رجال البلدة الكرام . أقول بالرغم من هذا كله ، فقد استقبله أهل البلدة وأكرموه ، والوه ونصروه[٨٥] . بل وأكثر من هذا ، فقد أمدوه بالمال[٨٦] ، وتكفلوا بحمايته وإيصاله آمناً إلى أي جهة داخل أو خارج الجزيرة أراد[٨٧] . وقد بر الرجال بوعدهم . فلقد انطلق تشارلز داوتي أو خليل ميمماً شطر عنيزة ، مطروداً أو هارباً من غيرها . وصل هذه المدينة ودخلها طريداً حافياً لايملك من حطام الدنيا شيئاً[٨٨] . وخرج منها وبيده كل شيء . غادرها كريم الوفادة ، مزوداً بالمال والزاد[٨٩] ، وعلى مطية عمانية منتقاة ، تحف به عيون شقيق أو قريب وكذلك ابن أصدق أصدقائه في هذه البلدة المضياف[٩٠] .

طبقاً لما ذكره داوتي نفسه في كتابه : "Travels In Arabia Deserta" .

فقد أكرم في عنيزة الكثير من الناس خليلاً ودعوه إلى منازلهم . لقد ذكر داوتي هؤلاء أحياناً بأسمائهم ، وأشار إليهم مرات أخرى دون ذكر الأسماء . ويأتي في مقدمة من ذكر ، بعض وجهاء البلدة من تجار وأدباء ، بجانب أميرها الذائع الصيت زامل العبد الله السليم .

إن المتمعن فيما كتبه داوتي في مؤلفه هذا ، يستطيع أن يتبين بالإضافة إلى هذا الأمير أربع شخصيات ، بالذات ، أثرت في هذا الرحالة الإنجليزي وقربته وأكرمته . كان هؤلاء هم صفوة جلسائه ومضيفيه أثناء إقامته في هذه المدينة . هؤلاء هم عبد الله الخنيني(٩١) ، وحمد العسافي(٩٢) ، وعبد الله العبد الرحمن البسام(٩٣) ومؤرخنا عبد الله البسام الذي كان يومها شاباً يافعاً .

التطرق لأخبار الرحالة تشارلز داوتي في زيارته لعنيزة ليس مهماً ، بحد ذاته ، لأغراض هذا البحث مثله تماماً مثل هذه الشخصيات التي تحدث عنها داوتي في كتابه ، وإنما لأن هذا المُؤَلف ، Travels In Arabia Deserta يعتبر المصدر الوحيد ، تقريباً ، الذي تضمن بعض النتف والعجالات عن مؤرخنا عبد الله بن بسام في فجر شبابه ، فقد كان لزاماً التعرض له واستقراء مافيه من لمحات . وحيث إن داوتي ماتحدث كثيراً عن ابن بسام منفرداً بذاته ، وإنما ضمن هذه المجموعة من الشخصيات ، فقد كان لزاماً ، مرة أخرى ، ذكر هؤلاء والتعرض لأخبارهم ، ولكن فقط ، بقدر مايكفي أو يمكن من تسليط الضوء على ابن بسام نفسه ، ومن ثم اصطفاء صفاته .

على مقربة من النفود ، خارج عنيزة ، وبالتحديد في مزرعة عبد الله الخنيني ، الصديق الصدوق ، لداوتي ، تقابل لأول مرة المؤرخ عبد الله بن بسام مع هذا الرحالة حيث يقول داوتي بأنه قابل هنا بعض الأصدقاء الشبان للخنيني . وهؤلاء كما ذكرهم وعددهم هم حمد العسافي وعبد الله البسام(٩٤) ، الأصغر أو الشاب كما دعاه داوتي تمييزاً له عن البسام الأكبر منه عبد الله بن عبد الرحمن التاجر المعروف والذي تعرف عليه داوتي قبل ذلك(٩٥) . كما قابل معهم أيضاً شيخاً جليلاً هو ابن عائض(٩٦) .

وهنا ، وقبل التعرف على ماذكره داوتي عن ابن بسام يجدر التوقف قليلاً للتطمن أولاً والتأكد من أمر - على بساطته - هام . إذ إن عبارة داوتي التي قدم بها عبد الله بن بسام في كتابه ، تسترعي الانتباه والتأمل . فقد دأب على ذكره دائماً قائلاً : الشاب أو الأصغر عبد الله البسام ، أو عبد الله البسام ، الشاب (أو الأصغر) . وقال الأصغر تمييزاً له عن البسام . عبد الله العبد الرحمن الأكبر منه سناً ، كما تقدم ، وهو أمر مفهوم وواضح . ولكن داوتي اكتفى بذكر الاسم واللقب دون اسم الأب .

ونظراً لأن داوتي قابل ابن بسام في فترة مبكرة من عمره ، مع قلة المعلومات المتوافرة عنه وندرتها ، خصوصاً فيما يتعلق بتلك الفترة ، فإن المرء ليأخذ جانب الحيطة في التحقق والتأكد من

أن من قابله داوتي كان فعلاً هو المؤرخ عبد الله بن محمد بن بسام المعنى بهذه الدراسة . وتوثيق أمر كهذا ، لابد أن يكون مستحباً أو ربما ضرورياً لدرء أي شك كان أو تساؤل قد يثار .

في واقع الأمر ، أن الشاب عبد الله البسام الذي قابله داوتي وتحدث عنه ، هو نفسه المؤرخ ، فيما بعد ، عبد الله بن محمد البسام . ويبرهن على هذا اليقين أربعة أمور :

الأول : قول داوتي أن عبد الله البسام الذي قابله كان شاباً أمر ينسجم مع تاريخ ولادة المؤرخ عبد الله بن بسام الذي ولد كما مر وعلى أرجح الأقوال ، في عام ١٢٧٠هـ ، أخذاً بعين الاعتبار أن فترة زيارة داوتي لعنيزة كانت في حدود عام (١٢٩٥هـ) وبذا يكون عمره لايتجاوز الـ ٢٥ سنة كما مر ، وهو الأمر الذي ينطبق تماماً على وصف داوتي لذلك الشاب من ناحية العمر أو السن .

الثاني : الصفات العلمية الأدبية القليلة التي قالها داوتي عن الشاب البسام تأكدت فيما بعد أو بالأحرى ، انطبقت على المؤرخ عبد الله البسام .

الثالث : أنه بالاطلاع على الكثير من المصادر والمؤلفات التي تعني بعلماء وأدباء نجد ومؤرخيها ، وباستقراء ماحوته من نصوص وترجمات لهؤلاء ، اتضح جلياً أنه يوجد من أسرة آل بسام ، سواء في فترة مؤرخنا ، أو ماقبلها أو بعدها ، شخصان ذكرتهما هذه المصادر تحت اسم عبد الله هما : التاجر المعروف آنذاك عبد الله بن عبد الرحمن البسام ، الذي أشار إليه داوتي فيما تقدم ، والمؤرخ عبد الله بن محمد بن بسام نفسه . ويأتي كتاب «علماء نجد خلال ستة قرون» في مقدمة المصادر التي عول عليها في هذا الشأن . ونظراً لما يتمتع به مؤلفه الشيخ القاضي عبد الله بن عبد الرحمن البسام من علم واسع وسعة إطلاع وتعمق في تاريخ نجد وعلمائها ، ناهيك عن معرفة دقيقة بكل مايتعلق بأخبار أسرته أو عشيرته آل بسام ، نظراً لهذا ، مع العوامل الأخرى ، فإن المرء ليقول مطمئنا أن من قابله داوتي وذكره في كتابه هو المؤرخ عبد الله بن بسام بعينه .

الرابع : المحادثة التي جرت بين أمين الريحاني والمؤرخ عبد الله ابن بسام ، والتي خاطب فيها الريحاني المؤرخ ابن بسام وتحدث معه بصفته واحدا من أصدقاء داوتي أو خليل في عنيزة ، وكان الرد ينم عن المصادقة التامة لهذا القول ، بل ذهب ابن بسام إلى أبعد من ذلك حيث تطرق إلى بعض الأخبار المتعلقة بعبد الله الخنيني وعلاقته مع داوتي حيث احتضن هذا الرحالة وكان أقرب الناس إليه في عنيزة[٩٧] .

ومن هذا يتضح أن توكيد هذا الأمر وتأكيده يأتي هذه المرة من المؤرخ ابن بسام نفسه .

وفي منطقة وفترة ندر الطب فيهما يهتبل الثلاثة الفرصة لعرض أنفسهم على الحكيم السائح . وهي أيضاً فرصة ينتهزها الحكيم المتطبب[٩٨] ليعطي لمحة خاطفة عن انطباعه لأول وهلة عن هؤلاء . وبغض النظر عن العبارات التي استخدمها ، فإن ماقاله داوتي عن الشيخ الفاضل ابن عائض ينبيء عن قوة في البنية وسلامة في الصحة . أما عن الشابين حمد العساني وعبد الله البسام ، فقد قال الحكيم

أنهما على خلاف مايتمتعان به من كفاءة في النفس وعلو في الروح ، كانا نحيلين أو ضئيلي النمو . وعلل هذا بهواء الحواضر والمدن العظيمة التي أثرت على حياتهما[٩٩] . مشيراً بذلك إلى تلك المدن التي كان هؤلاء وآباؤهم يتاجرون معها ويسافرون إليها مثل بغداد والبصرة وبومبي ، والتي كانوا أحياناً ، يقيمون فيها فترات من الزمن طويلة ، قد تصل إلى الثلاثين عاماً أو تطول كما فعل والد حمد العسافي وذلك طبقا لرواية داوتي[١٠٠] .

ويعطي داوتي وصفاً مجملاً للمظهر الشخصي للمؤرخ أو الشاب ابن بسام كما رآه حينذاك . ويرى هذا الرحالة أن مؤرخنا عبد الله البسام بدا له ككاتب أكثر من كونه تاجراً معتبراً[١٠١] . مستعملاً هنا في وصفه له ، الكلمة الإنجليزية ''Clerk'' والتي تعني فيما تعنيه «كاتب في محل تجاري أو مكتب حكومي» وفي أغلب الحالات تعني كاتباً بسيطاً . ويلاحظ هنا أن داوتي أطلق مثل هذه الصفة على ابن بسام فقط دون رفيقه حمد العسافي ، ولعل لحداثة سنه في مثل هذه الصفة التي أطلقها عليه شأناً عظيماً وعلاقة مباشرة ، وهي من ناحية أخرى قد لاتدل إلا على جبلة كريمة من اتضاع في الخلق وبساطة في النفس إلى أصالة في الطبع والفطرة ، أبعدته عن زهو المال وكبريائه ، حتى بدا بهذا المظهر البسيط . وكلمة «كاتب» في الفصحى ، أو المحرفة عنها في اللهجة الدارجة «كيتب» قد تدل فيما تدل على الإنسان المتعلم أو المثقف أو توازيهما في المعنى .

ولعل ابن بسام انطلاقاً من هذه الصفة أو السمة ، مال إلى العلم والأدب بالرغم من تعدد اشغاله وأعماله . وهو الأمر الذي ألمح إليه كل من الشيخ عبد الله البسام والشيخ عبد الرحمن الزامل[١٠٢] السماحة والتواضع سمات كريمة طالما اتصف بها الكثير من العلماء والأدباء وارتبطت بشخصياتهم ، وها قد توافرت تلك الفضيلة لمؤرخنا في فجر شبابه .

ويواصل داوتي حديثه ، وفي هذه المرة عن الشابين معاً ، العسافي والبسام ، ويفهم مما قاله عنهما أنهما كانا على جانب من المعرفة والتحصيل المدرسي مكنهما من الكتابة ببراعة وإتقان[١٠٣] . وإذا كا ، هذان الشابان لازالا في بداية درب التحصيل والمعرفة ، فثالثهما الشيخ ابن عائض ، كان ، كما وصفه داوتي واحداً من العلماء أو الفقهاء البارزين[١٠٤] ، كما كان ملماً بالأدب والتاريخ أيضاً ، وهو الأمر الذي سيشار إليه فيما بعد ، لتعلقه بشيء من مجال هذه الدراسة .

من تسلسل الأحداث يتضح أن داوتي أو خليلاً ، كما عرفه الشاب ابن بسام ، لم يلتق به في الوهلة الأولى من قدومه لعنيزة ، ولكنه بالتأكيد قابله وتعرف عليه في الأيام القليلة الأولى من إقامته في تلك المدينة . وكان قبل ذلك قد التقى ببعض أدباء ووجهاء البلد وتعرف عليهم ، مثل الخنيني ، والبسام الكبير ، كما دعاه داوتي ، وغيرهم . دعا هؤلاء الغريب الإنجليزي إلى منازلهم وجالسوه في قهواتهم[١٠٥] وتبادلوا وإياه أحاديث الأدب والتاريخ والعصر وأحداثه . إلا أن هذه الجلسات على مابدا ، ماكانت لتعمر وتزهو وتصبح زاخرة بالنقاش إلا بعد اكتمال عقد تعرفه على أدباء البلدة

ومعرفته التامة بهم . أجل ، فبعد أن تعرف على الشابين ابن بسام والعسافي ، أكثر داوتي من ذكر الدعوات والجلسات ومادار فيها من نقاش وحوار ، مما قد يشير أو يوحي بما كان لهما من أثر وتأثير في هذا .

قابلت عنيزة ذلك الرحالة الغريب بكل كرم العرب وأصالتهم . فقد حفلت أيام إقامته فيها بدعوات كريمة من وجهاء المدينة وكبارها ومن عداهم على حد سواء . سنحت الفرصة لخليل بالجلوس في كثير من قهوات القوم والاستئناس بأهلها . ولكن على مايبدو طاب المقام له أكثر ، في أربع أو خمس منها ، هي قهوة أمير البلدة زامل ، وتاجرها الكبير عبد الله بن عبد الرحمن بن بسام ، وقهوتا التاجرين الشابين والأديبين الخنيني والعسافي ، وأخيراً قهوة المؤرخ أو الشاب بن بسام والتي كان لها ولجرنها جرس ووقع خاص لدى ذلك الرحالة . وباستثناء الأولى منها ، حيث كانت تعني مشغولة بحكم المدينة وتصريف أمورها فالأربع الباقيات كن المقر لكل حوار ونقاش دار بين ذلك الزائر ومضيفيه .

وقبل الدخول في هذا النقاش أو الحوار تجدر الإيماءة أولاً إلى المقر أو المكان الذي جرى فيه .

تثقف الأدباء في ركن من الدار عريق . إنها قاعة الاستقبال ، أو ماكان يعرف قديما بـ «القهوة» والتي لعبت على مايبدو دوراً بارزاً في الثقافة والأدب في عنيزة . القاعة هذه ، وجلساتها الأدبية سحرت لب الزائرين من الرحالة وغيرهم . أكثر من ذكرها داوتي ، وبعده الريحاني ، وفلبي ، وهاملتون وغيرهم[١٠٦] . ونظراً لما لهذه القاعة من أهمية قد ترقى إلى سمة النادي الأدبي في الشكل والعطاء ، بالإضافة إلى ارتباطها ببعض معطيات هذا البحث ، فقد يكون من اللائق بمكان الاستئناس بما قاله الريحاني عنها وعن إحدى جلساتها .

قال يصف قاعة القهوة : «إن قاعة الاستقبال عندهم تدعى القهوة ، وهى عادة طويلة فسيحة عالية سقفها ، وقد سقف بخشب الأثل ، قائم على أعمدة من الحجر مطلية بالجص ، لها نوافذ مزدوجة ، النافذة فوق الأخرى ، العالية للدخان يخرج منها والواطئة للهواء ، وعلى جدرانها رسوم هندسية نقشت بالجص فوق أرضية من الطين ، فتبدو في لونيها الأبيض والحنطي ، كأنها خرج فرنسي على قميص عربية . وفي الصدر مجوف مستطيل لايزيد إذا كبر على الثلاثة الأذرع هو الموقد يجلس عنده رب البيت ويجلس إلى جنبه ابنه أو أخوه أو أحد من أهله ، فينشيء الواحد يعمل القهوة والآخر يدق البن فى جرن الحجر كبير . . . وعند رأس الموقد خزانتان واحدة للحطب والأخرى للمواعين[١٠٧] هما قيد يد الجالس هناك ، فلايضطر أن يقف ليتناول شيئاً منهما وأهم من كل ماذكر الأباريق ، وهى محور الدعوة وركن الضيافة المادي ، أباريق النحاس الوهاجة كأنها وصلت تلك الساعة من المعمل في دمشق ، وقد صفت أمام المضيف صفاً متناسقاً من الأول الصغير الذي يكفي ضيفين إلى العاشر الذي يسقي مئة ضيف ويزيد . هذه هي القهوة عندهم . . .»[١٠٨]

ويقول عن واحدة من جلساتها : «تفضل نقهويك . هى دعوة شبيهة بدعوة الانكليز للشاي . وفي الضيافتين شيء غير القهوة وغير الشاي جميل ، فيهما ميل إلى الحديث والتعارف ، ورغبة في الألفة والوداد . .»[١٠٩] ويواصل قائلاً : «وهم في الضيافة لايسرعون ولايلحون ، اللهم إذا كانت الدعوة للقهوة فقط ، أما إذا دعيت للغداء أو العشاء فبعد الأكل الآية : «.... فإذا طعمتم فانتشروا» . ولا استثناء . لذلك كنت أفضل الدعوات للقهوة رغبة في الحديث ، وما أكثر الفوائد والدهشات فيه .

هذا سيدي عبد العزيز بن عبد الله آل سليم ، وقد أضافنا مرات بين الصلاتين وبعدها أصيلاً ومساءً ، لاليسمعنا حديثه ، وما أحلاه ، بل ليسمع حديثنا . وكنت من باب حب الذات والاستفادة أباريه في السؤالات ، فننتقل من الجغرافية إلى الزراعة ، ومن «أمريكه» كما كان يلفظها إلى بلاد طي ، ومن الأطباء إلى الشعراء .»[١١٠]

وهاهو داوتي كالريحاني ، بشيء من الغبطة والسرور ، يصور لنا أمسية من هذه الأمسيات الجميلة في تلك «القهوات» أو القاعات الحافلة العامرة قائلاً : «لقد أمضيت بعض الأمسيات السارة في قهوتي الصديقين والجارين الشابين حمد وعبد الله ، ودعيا ابن عائض ، الذي حدثني حديثاً مسلياً عن الأدب العربي . . . . وأعد لنا عبد الله شراباً بارداً من التمر الهندي المحلي بالسكر . بالنسبة لقهوة عبد الله ، في وقت النهار ، فقد كانت منتجعاً لخير الصحبة في المدينة ، – وهكذا كانت شهرة البسام الشاب المحترم ، وأخلاقه المرحة الحميدة . جرنه يرن كجرس يدعو للضيافة عندما يعد القهوة . جرن عنيزة عبارة عن مجوف صغير كالصحن في كتلة من الرخام الضخمة . . . والجرن الرنان يقيم كثيراً لديهم ، وكتل (الكتل الرخامية) أجران قهواتهم العظيمة تقطع من مكان على بعد ساعات قليلة من المدينة ، إلى الشرق منها ، (قرب المذنب ، نحو جبل طويق) . وكلما زاد طول يد الجرن الرخامية ، كلما دل ذلك على كرم صاحبها في عنيزة : إنها تدق بايقاع (وهذا هو حقاً ماسمعنا به مطلقاً عن مواقد قهوة العرب) . وكان هؤلاء هم خير الشباب النشطين من بيوتات أهل التجارة الخارجية في المدينة .»[١١١]

إذن كان داوتي ، أو خليل ، في أمسية أدبية مع الشابين عبد الله البسام وحمد العسافي ، والعالم الأديب ابن عائض ، وكدت أن أقول أستاذهما أو شيخهما ابن عائض . ابن عائض الذي قال لداوتي عندما رآه أول مرة ، لو كنت ياهذا معي في رحلتي بين مكة المكرمة وعنيزة لأخبرتك عن جميع الأماكن التاريخية[١١٢] ، حقق شيئاً من وعده هذا الآن ، فأتحفه بحديث الأدب والتاريخ .

لقد أشاد داوتي بالمؤرخ أو الشاب عبد الله بن بسام وبصاحبه حمد العسافي ، ولم ينس هذا العالم الأديب ابن عائض من الذكر الجميل . عبر عن سعادته الغامرة بلقيا هؤلاء والتعرف عليهم ، وقال ، كما تقدم في النص ، إنه قضى وقتاً جميلاً بصحبتهم .

وبالرغم من تحفظ هذا الرحالة في نعت العرب بما يليق بهم من صفات محمودة هم أهل لها وجديرون بها ، إلا أنه ، على مايبدو ، في تصويره لابن بسام وقهوته هنا ، كان موضوعياً . بل كان رومانسياً على خلاف عادته . ولابد أن شخصية البسام الفذة بخصالها الحميدة ، كما وصفها داوتي نفسه ، هي التى أوحت أو أملت عليه مثل هذا القول .

وإذا كان ابن بسام ، في قهوته ، لبقاً ورائعاً مع ضيوفه وزائريه ، فقد كان أروع فيما اعتاد أن يفعل بعد خروج هؤلاء ومغادرتهم . فبعد أن ينفرط عقد هذا الجمع أو المجلس وتنفض الندوة ، يخلد مؤرخنا ، الشاب آنذاك ، لا إلى الراحة والبهجة ، وقد توافرت له ، ولكن إلى كتبه لينهل من ينبوع العلم والعرفان ، ويطفىء ظمأ روحه المتعطشة لهذا المعين الذي لاينضب .

قال داوتي : «عبد الله ، بعد انصراف آخر أصدقائه في الأمسية ، كان يجلس على مصباح الكيروسين ، ناسياً زوجة شبابه ، منكباً على كتبه ، يغذي روحه الرقيقة حتى طلوع النهار تقريباً .»[١١٣]

ماقاله داوتي في هذا النص ، على قصره ، يعد ضوءاً منيراً لسبر غور الجذور الأولى لحياة ابن بسام الثقافية المبكرة . فعمل الشاب البسام هنا ، لايعدو إلا أن يكون حجر الزاوية والقاعدة الأساسية الصلبة التي شيد عليها صرح ثقافته وعلمه حتى ترعرع ونضج ، وهو في نفس الوقت ، برهان ساطع قاطع لايدلل إلا على اهتمام البسام بالعلم والثقافة منذ أن كان في ريعان الشباب . وأن هذا الاهتمام ماأتى في سن متأخرة ، ولا كان وليداً لمؤثرات معينة استجدت عليه فيما بعد ، ولم يكن كذلك أبداً .

والآن تجدر الإشارة إلى ملاحظة عابرة ، ألمح إليها فيما تقدم . ألا وهى علاقة العالم الشيخ ابن عائض بالمؤرخ أو الأديب الشاب ، آنذاك ، ابن بسام . بمعنى آخر هل استفاد ابن بسام من هذا العالم الأديب ؟ وهل يمكن أن يعد شيخاً له أو تتلمذ على يده ؟ ويرد مثل هذا الهاجس لما لوحظ من قرب هذا العالم والتصاقه به . فهذه المرة الثانية التي يورد ذكرهما ، داوتي ، متلازمين مترافقين . حيث اصطفى ابن بسام هنا هذا العالم دون غيره ليكون جليساً آخر مع صديقه العسافي بحضرة هذا الرحالة الزائر . والمرة الأولى كانت عندما قابل داوتي ابن بسام لأول مرة[١١٤] . وكانوا هم نفس الثلاثة . أو ربما صح القول الشيخ وتلميذاه .

بالإضافة إلى هاتين المرتين ، فقد ذكر داوتي أيضاً أن هناك علاقة متينة ووثيقة كانت تربط الشيخ ابن عائض بالبسام الكبير عبد الله ابن عبد الرحمن إلى درجة أن وصف داوتي ابن عائض ككاتب عمومي لذلك الرجل الطيب كما قال[١٥] . وماذكره داوتي من علاقة لهذا العالم الجليل بأسرة آل بسام ، عموماً ، تؤيده المصادر التاريخية الأخرى .[١١٦] بل تذهب هذه المصادر إلى أبعد من ذلك ، حيث تذكر العديد من علماء هذه الأسرة ؛ أسرة آل بسام الذين درسوا وتتلمذوا على يد الشيخ عبد الله بن عائض ،[١١٧] مما قد يرجح افتراضاً كهذا .

وأمام هذه الصلة والتلازم الوثيق بين ابن بسام والشيخ ابن عائض ، مع ماعرف من طول باع لهذا العالم في العلم والأدب والتاريخ ، وماقيل عن ابن بسام الشاب وروحه الدؤوب الطموحة للتعلم وطلب المعرفة ، فإن المرء قد لايجافي الحقيقة والصواب لو توخي علاقة علمية ما ربما كانت قائمة بين الاثنين ، علاقة الشيخ والتلميذ . لعل رابطة كهذه كانت موجودة على أي شكل أو نمط كان ، وبالتالي لعل ابن عائض ، كان واحداً من الروافد التي نهل منها ابن بسام .

ويقول داوتي عن ابن بسام ورفاقه الأدباء الشبان أنهم قراء الموسوعة : «. . . لقد كانوا ممن يقرؤون فى الموسوعة»[١١٨] .

ولمعرفة قصة هذه الموسوعة يحسن الرجوع قليلاً إلى الوراء ، فكما مر ، قبل أن يقابل داوتي ابن بسام ، كان قد تعرف على تاجر أو بالأحرى أديب آخر هو عبد الله الخنيني ، وكان هذا قد دعاه إلى قهوته وتوثقت أواصر الصلة والمحبة بين الاثنين إلى الدرجة التي جعلت داوتي يقول عما بينهما من ألفة وود : «لكن من وقف هنا كان ابناً مهذباً من تميم ، والذي لازمني فأله الحسن منذ ذلك اليوم حتى نهاية رحلتي في بلاد العرب ! وأخذ يدى في يده ، دالاً بذلك على خلقه الكريم كما هو الحال عند العرب . . . . كان هذا هو عبد الله الخنيني[١١٩]» .

والذي عامل داوتي وكأنه عربي مثله ، وبادله هذا الرحالة نفس المعاملة ، حيث يقول : «. . . بالنسبة لعبد الله الخنينى كنت كأني عربي ، وكان بالنسبة لي كأنه أوروبي[١٢٠]» .

وفي واحدة من المرات التي دعا فيها الخنيني داوتي إلى منزله ، استعرض هذا الرحالة كتب أو مكتبة مضيفه ، فوجد من بينها كتاباً ضخماً كان «موسوعة البستاني»[١٢١] . وقول داوتي بأن هؤلاء الأدباء الشبان من قراء هذه الموسوعة يعطي الانطباع بوجود مثل هذه الموسوعة وتداولها عند معظمهم . ولعله ماعمم هنا وأجمل في وصفهم بقراء الموسوعة ، على ماعرف به من دقة وتفصيل ، إلا بعد أن عثر عليها لدى الكثير منهم كابن بسام وغيره . ووجود كتاب كهذا في حوزة أدباء ومثقفي البلدة في فترة كتلك ، لاشك أمر يستحق التوقف والتأمل . فقد اعتاد المرء أن تكون قائمة كتب أو مكتبات علماء وسط الجزيرة في ذلك الزمن مقتصرة على كتب العلوم الشرعية واللغوية والفلك والتاريخ الإسلامي وبعض كتب التراث كالشعر ونحوه ، مع بعض المخطوطات المتعلقة غالباً بالتاريخ المحلي[١٢٢] . أما هذه الموسوعة ووجودها في هذا الصقع من الجزيرة ، وهو أمر على غرابته مدرك ومفهوم ، كما سيأتي ، أقول إن وجودها هنا يعد لوناً من الثقافة بعيداً جديداً على ماعتاده جمهرة العلماء والمتأدبين في منطقة وحقبة كتلك .

ويتضح أيضاً من حديث داوتي ، أن أدباء هذه المدينة لم يقفوا عند حد هذه الموسوعة ونكهتها الثقافية الفريدة والمميزة ، بل تعدوها إلى اللغات الأجنبية . فهذا عبد الله الخنيني ، كما قال داوتي كان يجيد اللغة الهندوستانية ، وأحد أبناء البسام الكبير ، كان ملماً بالإنجليزية قراءة وكتابة ، ومثله كثير[١٢٣] . قد يعجب البعض لمثل هذا الأمر ، لاسيما في مدينة تقع في قلب جزيرة العرب ، وفي

زمن كذاك . وفي الحقيقة لايعد هذا الأمر من العجب في شيء ، إذا ماعرف مالأبناء هذه البلدة من نشاط تجاري واتصال مستمر بحواضر ومدن ذلك الزمن . إنه لأمر أدعى إلى الإعجاب منه إلى التعجب . هذه الأمور مجتمعة من سفر إلى تلك الحواضر وإقامة فيها ، وماصاحب هذا من صلات واتصالات ، جعلت عنيزة تأخذ طابعاً أو سمة من سمات تلك الحواضر والمدن . إن لمسات اللغات الأجنبية لم تقتصر على مثقفي البلدة وأدبائها أو تجارها الكبار ، بل تعدتهم إلى سوقها فأضفت عليه شيئاً من لكناتها . يقول أمين الريحاني «. . ولكن هناك سوقاً للتجارة كبيرة منيرة تدهشك بما فيها من الأشكال والألوان . فتذكرك بأميركا وبلاد الإنجليز ، وتنقلك إلى الهند واليابان ، وتسمعك اللغات الانكليزية والفرنسية والهندوستانية ، ولهجات من العربية متعددة .»[١٢٤]

بالإضافة إلى ماقاله داوتي ، هنا ، عن اللغات ، وماقاله الريحاني فيما تقدم ، عن سفر أبناء هذه البلدة إلى البلدان القصية شرقاً وغرباً[١٢٥] ، فإن هذا الأمر يحتاج إلى مزيد من الشرح والتوضيح . فكما مر في أول هذا البحث ، قول الشيخ البسام أن مؤرخنا كان يعمل بالتناوب مع أحد إخوانه في رعاية بيتهم التجاري في الهند . وهذا يعني الإقامة في مثل هذا البلد مدداً غالباً ماتتراوح بين السنتين والثلاث كما يقول السليم . وعلى شاكلة ابن بسام وأخيه كان الأمر كذلك بالنسبة للكثير من تجار عنيزة . ولاشك أن هذه المدد المتكررة تتيح لكل طموح أن يتعلم لغة البلد الذي يقيم فيه . وأكثر من هذا ، فقد أقام بعض هؤلاء في بلدان أجنبية فترات طويلة وتنقلوا فيما بينها ، فهذا مثلاً الخنيني الذي ذكر داوتي أنه يجيد اللغة الهندوستانية ، قد أقام في الهند وتزوج هناك وأنجب طفلاً .[١٢٦] وكان قد أبحر إلى جزيرة موريشوس Mauritius ، وسافر إلى زنجبار ،[١٢٧] وغيرها من البلدان . وطبقاً لرواية داوتي أيضاً ، فإن البعض أبعد في أسفاره حتى وصل أوربا[١٢٨] .

ولكن هذا لايعني ، بالضرورة ، أن المؤرخ عبد الله بن بسام قد أجاد لغة ما أو ألم بها ، حيث لايتوافر نص يثبت مثل هذا الأمر أو ينفيه . على أن المرء قد يتصور أن ابن بسام ، في الفترات التي أقامها في الهند ، حاول أن يتعلم اللغة الإنجليزية مثلاً أو لغة أهل البلاد ، على أي مستوى كان . ولعل من الحصافة بمكان القول ، ولو ظناً وتخميناً ، أن إبن بسام ربما أحاط بلغة ما ، وذلك طبقاً لملاحظات وهواجس عابرة منها :

١ – في فترات متكررة ، تناوب ابن بسام مع أحد إخوانه الإقامة في الهند لتسيير أمور بيتهم التجاري هناك . وهنا قد يتسائل المرء كيف يستطيع القيام بمثل هذا العمل في بلد لايجيد لغته أو على الأقل يلم بشيء منها .

٢ – اختياره ، من قبل أخوته للتناوب مع أخيه الآخر في إدارة هذا البيت التجاري ، قد يوحي بشيء ما . هل كان مثلاً ملماً بمبادىء لغة ما أهلته لمثل هذا العمل ؟

٣ – يتوقع حدساً أنه ألم في الهند بمبادىء الإنجليزية أو الهندوستانية ، لاسيما أنه ثبت أن إبن

بسام ، كما كان في عنيزة ، كان في الهند لديه رغبة وميل إلى الفكر والأدب . فقد بدأ في تأليف وكتابة تاريخه «تحفة المشتاق» عندما كان في الهند(١٢٩) .

وإنسان كهذا نوه عن شغفه وولعه بالعلم والمعرفة ، أينما كان ، لابد أن يكون تواقاً إلى تعلم لغة إذا ماسنحت له الفرصة . فلعله وقد سنحت هنا ، انتهزها وسها المؤرخون عن تدوينها . وكيف لاينتهز فرصة كهذه ، وهو الذي حاول من قبل الاستفادة من فرصة مماثلة سنحت له بالرغم من أنها ، من حيث الأهمية ، لاتقارن بهذه أبداً . أجل لقد حاول البسام ، فيما يتعلق باللغة ، انتهاز فرصة وجود الإنجليزي داوتي في عنيزة وتعلم بعض مبادىء الإنجليزية .

قال داوتي متحدثاً عن ابن بسام وصديقه العسافي : «هذان التاجران الشابان . . . وسيتعلمون مني بعض الكلمات الأفرنجية ، وأبجديتنا»(١٣٠) ، والسبب لرغبتهم في تعلم هذه اللغة ، كما يصفه داوتي ، هو حاجتهم إليها في أعمالهم التجارية(١٣١) . ألا يحتمل أن يكون البسام الذي قابله داوتي آنذاك ، بعد ، لم يفتح بيتاً تجارياً في الهند وبالتالي ماتعلم لغة مكنت داوتي من ذكرها .

وعلى كل فكل ماذكر هنا هو مما يعن للإنسان ويرد على الذهن ، ولكن يظل هجساً عبر الخاطر ، لايرقى إلى القول الأكيد بدون برهان يثبته أو ينفيه .

وتراث الجزيرة العربية القديم ، خصوصاً الشعر منه ، هو الأساس المتين الذي يتركز إليه ويستند كل مفكر وأديب عربي . وابن بسام وأقرانه من أدباء عنيزة الشبان ، ماخرجوا عن هذا النطاق ولاغفلوا عن مورد هام كهذا .

قال داوتي : «لقد كانوا ممن يقرؤون . . . ولشعراء الجزيرة العربية الروحانيين في العصور القديمة»(١٣٢) .

وداوتي ، لاشك ، عنى هنا شعراء الجزيرة العربية القدامى ، سواء في العصر الجاهلي ، أو في العصور الإسلامية ، ويأتي على قمة هؤلاء جميعاً أصحاب المعلقات .

كما أمضى داوتي أمسيات جميلة في قهوة ابن بسام المؤرخ أو الأديب الشاب ، فقد أمضى أمسيات ربما أجمل في قهوات كل من ابن بسام الكبير ، وصديقه الحميم عبد الله الخنيني وغيرهما . وكما حفلت تلك بحديث الأدب والتاريخ ، فقد حفلت أمسياته هذه بهذا وبما هو أكثر حساسية منه . حفلت بحديث السياسة والعصر ، واللغات والدين ، كما وتطرقت إلى بعض المخترعات الحديثة آنذاك من برق إلى آلات أو مضخات رفع المياه(١٣٣) .

ونظراً لعدم نص داوتي صراحة على حضور ابن بسام المؤرخ لهذه الأمسيات ، والذي لاينفي بالضرورة ، تواجده فيها أو في بعضها ، لاسيما تلك التي كانت لدى البسام الكبير ، أو الخنيني ، لما للأول من صلة القربى ، وما للثاني من معرفة وصداقة ، ولكن نظراً لعدم التأكد التام من حضور مؤرخنا لهذه الأمسيات ، فقد رؤى الاكتفاء فقط بالإشارة إليها .

كانت أحاديث السياسة تزخر بمواضيع كالدولة العثمانية وإدارتها وولاتها في العراق ، كما وتطرق الحديث أيضاً إلى فرنسا وبروسيا وبالذات بسمارك Bismark ، وعن بعض وزراء بريطانيا في ذلك العهد ، وتعجب داوتي من معرفة ابن بسام الكبير ليس فقط لهؤلاء الوزراء وسياستهم ، وإنما تمكنه من اللفظ بشكل صحيح لأسماء وزراء كبالمرستون Palmerston ، ودزرائيلي Disraeli . كما وأخبره هؤلاء السياسيون ، كما وصفهم ، عن الحرب التركية مع روسيا ، والتي بدأت وانتهت أثناء فترة تجواله في مجاهل جزيرة العرب كما قال . وقال داوتي أنه أعجب بهذه المعرفة الواسعة لهؤلاء السياسيين في الجزيرة العربية[١٣٤] .

وداوتي في أمسياته مع العنيزيين ، وبالذات مع علمائهم وأدبائهم ، لم ينس موضوعاً مهماً ، وهاماً جداً لدى أمثاله من الرحالة . الآثار ومايتعلق بها من أماكن تاريخية ، صيد ثمين يلهث خلفه هؤلاء وغيرهم . ولعل الآثار ومحاولة التعرف عليها سببٌ من الأسباب التي قذفت بداوتي أصلاً إلى الجزيرة العربية[١٣٥] . فمرة يسأل أدباء البلدة وعلماءها عن تحديد موقع أثري يضطرون معه لإعطاء إجابة دقيقة وموثقة ، إلى الرجوع للمصادر من كتب ونحوها[١٣٦] . ومرة أخرى يأخذونه ، في رحلة على الجياد ، لمشاهدة بعض الآثار خارج البلدة ، كما حدث في آثار العيارية[١٣٧] .

ويهم هذا البحث ماقاله داوتي ، مقتضباً ، بعد عودته من هذه الرحلة حيث قال : «ذهبت مع حمد إلى بيته ، وهناك أتى إلينا الشاب عبد الله البسام . وتحدثا عن شعوب التاريخ القديم المتمدينة ، وبصفتهم متعلمين أو أدباء ، فقد حكموا بفساد رأي العامة القائل بوجود عمالقة في الأزمان السابقة : ومع ذلك ، اعتقدا معتمدين على ماتظهره الكتابات القديمة ، أن الرجال في أزمان أسلافهم كانوا أقوى مما هم عليه الآن»[١٣٨] .

إذن يعود داوتي من رحلة الآثار ، ويذهب مع حمد العسافي إلى بيته ، وما أن يصلا إلى هناك ، حتى ينضم إليهما الشاب عبد الله البسام . وهذه هى المرة الثالثة التي يذكر فيها داوتي هذين الصديقين معاً[١٣٩] ، وأنه قابلهما سوياً ، مما يوحي بعلاقة وثيقة بينهما . ومن البدهيّ جداً بعد رحلة كتلك ، أن يكون الحديث حول الآثار أو التاريخ القديم وكل ماهو قديم بصفة عامة . التاريخ القديم أو الآثار والحديث عنهما ليس مهماً بحد ذاته لهذه الدراسة ، وإنما المهم هو إشارة داوتي إلى كل من البسام والعسافي : «كأديبين أو متعلمين» فهذه الصفة أو التمييز من قبل هذا الرحالة ، وقد قابل البسام في فجر شبابه وعرفه معرفة وثيقة ، مهمة جداً في تحديد الشخصية والهوية العلمية أو الثقافية لهذا المؤرخ في هذه الفترة المبكرة من حياته .

ومن رواية داوتي يتضح أنه كان لهذين الأديبين إطلاع على المؤلفات والكتب التاريخية القديمة ، مكنهما من نقد الآراء الخرافية للعامة نحو العصور السابقة . وهذه بلا شك سمة أو صفة قربت الأديب عبد الله البسام إلى التاريخ ومجاله . وإشارة كهذه إلى أديب شاب كابن بسام ، لاشك تلقي ضوءاً عليه وعلى اتجاهاته الأدبية المبكرة ، وهى هنا لاتعني إلا ميلاً إلى التاريخ ومجاله . وكون

ابن بسام يبدى اهتماماً نحو التاريخ وبالذات في هذه السن المبكرة من حياته بحد ذاته ، يعد أمراً له أهمية قصوى ، في هذه الدراسة حيث ينفي الرأي القائل بأن اهتمام هذا المؤرخ بالتاريخ كان متأخراً[١٤٠] .

ويختتم داوتي هذا الفصل من كتابه قائلاً : «أصدقائي الطيبين ، قراء الصحف ، مع كونهم سياسيين نابهين محبين للإطلاع ، إلا أنهم لم يعيروا الجغرافيا أي انتباه : لذلك تناولت ورقة كبيرة ورسمت عليها خريطة أوربا ، واستدعى البسام خطاطه ابن عائض ؛ الذي كتب أسماء العواصم كما نطقتها . وعندما تم عملنا ، مررها بين أصدقائه . ومع أن الساميين - جوابون بشكل واسع للبلدان التي يمرون بها على ظهور جمالهم ، إلا أن فهمهم قليل للمقاطعات التي ، بسهولة نتخيلها ونضعها على الخرائط . ولم أجد أيًّا ، حتى بين خريجي الكليات الحديثين في سوريا ، مَن لديه أكثر من فهم طفولي (أولي) في الجغرافيا . هذه ليست فنوناً سامية»[١٤١] .

وقبل مناقشة ماورد في هذا النص ، يجدر التنويه إلى أن إيراده هنا أصلاً ، مع كونه لايحتوي على إشارة مباشرة إلى المؤرخ ابن بسام ، كان لعوامل ثلاثة هي :

١ - أن داوتي ضمن هذا النص ، الذي ختم به هذا الفصل من كتابه ، بعض الصفات التي أطلقها على أصدقائه في عنيزة ، بشكل عام ، ودونما تخصيص . والمؤرخ أو الشاب ابن بسام كان ولاريب واحداً من هؤلاء ، بل كان واحداً من أبرزهم .

٢ - اتضح من السياق أن موضوع النص كان حديثاً جرى أثناء جلسة في قهوة البسام الكبير عبد الله العبد الرحمن ، وأنه كان هناك عددٌ من الحضور لابأس به ، بدليل الخريطة التي مررت أو تناقلتها الأيدي فيما بينهم . أفلا يحتمل أن يكون البسام الشاب أحد هؤلاء الحضور ؟

وفي ظل أواصر القربى[١٤٢] التي كانت تربطه بهذا القريب المضيف ، وماعرف عن الناس من عادة متأصلة في التزاور مساء لتجاذب أطراف الحديث والتسلية - وحديث الأدباء والمثقفين لاشك يعبق بشذا الأدب والتاريخ - في ظل هذا كله ، وضيف غريب كان حديث الناس ، له به معرفة وصداقة ، فإن المرء لايتوقع من الشاب ابن بسام أن يفرط بجلسة مغرية كهذه تهيأت له فيها كل أسباب الحضور ودواعيه .

٣ - مناقشة ماقاله داوتي في النص عن الجغرافيا ، ولو مختصراً ، لما سيذكر من سبب عام وخاص .

قول داوتي عن أصدقائه الطيبين بما فيهم بالطبع ابن بسام الشاب ، بأنهم ساسة مطلعون ، أمر لايعد غريباً ، إذا عرف مالهؤلاء من اتصال واحتكاك بالعالم الخارجي بوسائل عدة ، كالسفر والترحال والإقامة في الخارج لسنوات طويلة كما مر ، مما مكن هؤلاء من الاطلاع على مجريات الأمور والأحداث سواء أكانوا مقيمين في بلدتهم أو في بلاد الغربة . وكانت إحدى ثمار هذا الاتصال ،

الاطلاع على الجرائد والصحف ، كما في النص ، والتي لعلها كانت الوسيلة الإعلامية الوحيدة آنذاك . الاطلاع على هذه الجرائد ليس في بلاد الغربة فقط ، وإنما أيضاً في قلب مدينتهم ، حيث ثبت اعتيادهم على جلب مثل هذه الصحف إلى عنيزة بشكل منتظم ، وهاهو ذا داوتي يقول وقد أتاه نصيبه من هذه الجرائد : «كما أعارني صالح رزمة من صحيفة الشجاعة العربية ؛ والتي مضى على صدورها عدة شهور ، لكنها تعد جديدة في هذه البقاع من العالم ، حيث أحضرت عن طريق القوافل»[١٤٣] .

والحالة هذه فمن البدهيّ أن تكون الصحف والجرائد متداولة بين مثقفي هذه المدينة يتابعون ، من خلالها ، أحداث العالم وأخباره . وقد ذكر داوتي بعضاً من أسماء هذه الصحف كجريدة «الشجاعة» و «الممتاز»[١٤٤] متابعة الجرائد مع السفر والترحال كانت غاية الاطلاع في ذلك الزمن وهو ماتوافر لجل هؤلاء . وخير مثال على ذلك البسام الكبير الذي حدث داوتي عن ثروات اليهود وتبرعاتهم لبني جنسهم ومعاملاتهم الربوية ، وهو ماعرفه من جريدته ، كما قال داوتي ، ومن إقامته في الخارج[١٤٥] .

أما فيما يتعلق بالمؤرخ عبد الله ابن بسام ، فنظرة شاملة على تاريخه المخطوط توحي بأنه كان متابعاً ومطلعاً جيداً على الصحف والجرائد ، حيث دون بعض الحوادث والأخبار في هذا التاريخ ، نقلاً من تلك الجرائد والصحف[١٤٦] .

والآن ، وباختصار شديد ، سيناقش ماقاله داوتي بشأن علم الجغرافيا ، لا لأنه نفاه تقريباً عن أدباء وعلماء هذا الجزء من الجزيرة العربية وسوريا فحسب ، وإنما لأنه سلخ العرب والمسلمين منه بحجة أنه ليس من علوم الساميين أساساً كما قال . وهو أمر مرفوض لأنه يناقض الواقع والتاريخ ، ولايدل إلا على جهل هذا الرحالة المطبق بعلم الجغرافيا ، ليس فقط عند العرب والمسلمين ، بل بهذا العلم عموماً . ونحن لاندعي هنا ، خصوصاً في فترة من التاريخ كانت حالكة مظلمة ، أن المعلومات الجغرافية سواء لدى أدباء وعلماء عنيزة أو خريجي الكليات في سوريا ، كما قال ، قد بلغت شأوا أو قدرا يضارع مابلغه أو وصل إليه أسلافهم الأوائل من العرب والمسلمين في العصور الزاهرة . ولكن كما كانوا على مقدار ومستوى مقبول ، مهما كان متدنياً ، في العلوم الأخرى ، كالأدب والتاريخ ، فإن المرء لايتوقع إلا أن يكونوا كذلك في علم ورثوه عن أسلافهم العظام ، مثله تماماً مثل العلوم والآداب الأخرى . علماً بأن سوريا[١٤٧] كانت في تلك الفترة ، مهما كان المستوى الثقافي والعلمي للعرب والمسلمين متواضعاً آنذاك ، كانت تعد مع مصر والعراق مراكز التقدم والحضارة في العالم العربي والإسلامي . كما أنه ثبت ، وبشهادة واحد من هؤلاء الرحالة أنفسهم ، وجود مدارس في نجد ، في تلك الفترة ، تدرس علوماً من بينها الجغرافيا[١٤٨] . كما ثبت أن المؤرخ ابن بسام كان له معرفة بالجغرافيا وإلمام ، حيث استفاد منه آخرون في هذا المجال بالذات ، كما سيأتي .

ونظرة خاطفة على علم الجغرافيا لدى العرب والمسلمين ، وما حققوه في هذا الحقل من تقدم علمي رائع من اختراعات ، وكشوفات عظيمة لها أسبقيتها الأولى بين الأمم قاطبة ، تدحض هذا القول وتنفيه من أساسه وتلبس صاحبه ثوب الجهل والتعصب .

فمؤلفات مثل «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» لابن حوقل ، أو «المسالك والممالك» لأبن خرداذبه ، أو «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للأدريسى ، أو «عجائب المخلوقات (في الجغرافيا والطبيعة والفلك)» للقزويني ، كتب عظيمة كهذه لاتنبئك إلا بتقدم علمي رائد للعرب والمسلمين في الجغرافيا ، بل وتفردهم الريادي في هذا العلم ، وأسبقيتهم إلى الكثير من اختراعاته ونظرياته . فهم الذين فطنوا مثلاً إلى كروية الأرض ودورانها حول نفسها مرة في اليوم ، وحول الشمس مرة في كل عام . وهم الذين قاسوا محيط الأرض ، وجاذبية الأرض(١٤٩) . والعرب والمسلمون كأمة قوية ، في عصرها الزاهر ، لم تلتصق بالأرض وتخلد إلى الراحة والسكون ، بل قامت بالرحلات العظيمة براً وبحراً والتي تعد بلاشك عنصراً أساسياً يرتكز عليه علم الجغرافيا ، حتى قيل إن مسلمي الأندلس قد وصلوا إلى شواطىء أمريكا(١٥٠) . كل هذا كان ، وأكثر منه ، والغرب يغط في سبات عميق . وعندما استيقظ هب يترجم هذا التراث الثمين ويستفيد منه(١٥١) . ووجود الكثير من كلمات العرب ومصطلحاتهم الجغرافية في لغات الغرب ، دليل صارخ على تقدم العرب والمسلمين ، وفرض مسميات مخترعاتهم بقوة التفرد بالسبق والريادة .

ومن النص يتضح أن السبب الذي جعله يتحدث عن الجغرافيا هو إدعاؤه بأن العرب لايعرفون إلا قليلاً عن المناطق التي تبدو بديهية للغربيين ، وهي المناطق الأوروبية . والسؤال الذي يتبادر في اللحظة والتو مامقدار معرفة الغربيين عن الجزيرة العربية ومناطقها في تلك الأيام ؟

الجزيرة العربية ، التي كانت بالنسبة لأدباء الغرب ومثقفيه سراً دفيناً لايكتشفه ويلم بشيء من خفاياه إلا الرحالة الجسور المغامر . أما مضيفوه أدباء عنيزة ومثقفوها ، ومن بينهم بالطبع المؤرخ ابن بسام ، فيبدو أنهم كانوا على نقيض قوله تماما . حيث إن الكثير منهم كان له علاقات تجارية مع شركات في عواصم أوربا نفسها وغيرها(١٥٢) . كما أن معظمهم قد شرق وغرب إلى العديد من البلدان ، بل إن بعضهم بشهادة داوتي نفسه ، كما مر ، قد أبعد في سفره حتى وصل إلى عواصم الغرب كفينا ولندن وباريس وشاهد هذه العواصم وألم بمعرفتها عياناً لا على الخريطة فقط . كما اتضح ، وبرواية داوتي نفسه مرة أخرى أن بعضهم كان على جانب من الدراية بشؤون الغرب تعدت معرفة أسماء المدن وما إليها إلى الإلمام بما هو أدق من ذلك ، كمعرفة أسماء الوزراء ولفظها بشكل صحيح ، الأمر الذي أدهش هذا الرحالة نفسه . ويذكر داوتي أنه تلقى مراسلات من بعض هؤلاء وذلك بعد مغادرته للجزيرة العربية مما يدعم إدراكهم الأكيد ومعرفتهم الكبيرة بأسماء بلدان ومدن أوروبا(١٥٣) تلك المعرفة التي نفاها داوتي تقريباً ، مما جعله في موقف متناقض لعل مرده التحامل على

الحضارة العربية والإسلامية من الأساس ، وهو الأمر الذي سيطر على الكثير مما قاله في كتابه عن العرب والمسلمين إجمالاً .

وقبل طي الكتابة عن حديث داوتي وماقاله عن ابن بسام منفرداً لوحده ، وحديثه عنه ضمن أدباء عنيزة مجملاً ، تجدر الإشارة إلى خطأ طفيف وقع به المؤرخ أمين الريحاني ومن نقل عنه من العلماء والمؤرخين والباحثين كعلامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر ، والدكتور محمد الشويعر .

يقول تشارلز داوتي : «بعد يوم أو يومين من وصولي لعنيزة ، جاء شاب من الوجهاء ليدعوني على العشاء نيابة عن والده : الذي كان ذلك الرجل الطيب عبد الله عبد الرحمن البسام ، تاجر في جدة وكبير بيت البسام في عنيزة . عبد الله البسام وعبد الله الخنيني كانا صديقين حميمين ، يفطران ويتعشيان معاً ، ويذهبان كل يوم للقهوة في بيتي كل منهما : وهما ، مع زامل ، كانوا فلاسفة .»[١٥٤]

وضمن أو وسط حديثه عن المؤرخ عبد الله بن محمد البسام يقول أمين الريحاني : «. . . الذين اضطهدوا «النصراني الكافر» هنرى دوطي وطردوه من البلد . لم يجد الرحالة الإنكليزي يومئذ غير بضعة رجال والوه ، وأضافوه ، وساعدوه في محنته ، أهمهم ثلاثة هم أمير عنيزة يومئذ وعبد الله القنيني وعبد الله البسام . وقد ذكرهم دوطي في كتابه بالخير . نعتهم بالفلاسفة واثنى عليهم ثناء طيباً»[١٥٥] .

من يقرأ النص الأول ، نص داوتي لايخامره الشك في أن من عناه بالفيلسوف كان شخصاً آخر غير المؤرخ عبد الله بن محمد البسام ، الذي كان آنذاك لاعمراً ولا علماً مؤهلاً لصفة كهذه ، إنه عبد الله بن عبد الرحمن البسام الذي ذكره في أول النص ، البسام الكبير أو الطيب كما دعاه داوتي . ولكن من يطالع النص الثاني نص الريحاني ، وقد أورده في معرض حديثه عن المؤرخ عبد الله بن محمد البسام ، لايتبادر إلى ذهنه أبداً أي شخص آخر غير هذا المؤرخ . ومن يدري فلعل الريحاني قصد البسام الكبير . لكن وهو يتحدث عن بسام آخر هو المؤرخ ، كان يتوجب عليه أن يوضح ذلك ويشير إليه كأن يذكر الاسم ثلاثياً مثلاً ، وحيث إنه لم يفعل ذلك ولم يشر إلى البسام الكبير لا من قريب ولا من بعيد ، فالأرجح أن الريحاني كان يعني المؤرخ البسام الذي كان يتحدث عنه . ولايفهم من نصه غير هذا ، ويلاحظ أيضاً بالإضافة إلى هذا ، أن الريحاني أخطأ في اسم داوتي ، حيث كتبه «هنري دوطي» بينما هو تشارلز وليس هنري . كما أخطأ في كتابه اسم الخنيني ، حيث كتبه «القنيني» ، وقد يكون خطؤه هذا بسبب نقله من داوتي الذي كتبه هكذا el-Kenneyny . وعدا هذين الخطأين الأخيرين ، فهكذا كان بالنسبة للعلامة الشيخ حمد الجاسر الذي اعتمد على الريحاني حيث يقول في معرض كلامه عن المؤرخ عبد الله البسام : «. . . وكان ثالث ثلاثة ساعدوا دوتي وأضافوه فنعتهم بالفلاسفة وأثنى عليهم ثناءً طيباً»[١٥٦] ومن النص يتضح مدى التأثر بالريحاني أسلوباً وقصداً .

وقال الدكتور الشويعر مكرراً كل أخطاء الريحاني : «هذا من جانب ، ومن جانب آخر فقد نقل عن هنري دوتي الذي زار نجداً ، وسموه النصراني الكافر قد أثنى على ثلاثة هم : أمير عنيزة وعبد الله القنيني وعبد الله بن بسام الذي قال عن نفسه بأنه يومها كان شاباً : فقد ذكرهم بالخير ونعتهم بالفلاسفة وأثنى عليهم ثناءً طيباً»[١٥٧] .

وكنت أتوقع من الدكتور الشويعر أن يصحح اسم الخنيني على الأقل . والجاسر والشويعر لايؤاخذان على هذا الخطأ أو اللبس إطلاقاً ، وإنما تقع جريرته على الناقل من المصدر الأصلي أمين الريحاني نفسه ، الذي قد يكون في تشابه الاسمين سبب لخطئه . علماً بأن داوتي نعت هؤلاء الثلاثة بالفلاسفة حتى قبل أن يقابل المؤرخ عبد الله البسام ويتعرف عليه ، وبالتالي قبل أن يأتي على ذكره ، في كتابه ، أساساً .

إذن ، وطبقاً لما قاله داوتي عن ابن بسام بشكل مباشر وغير مباشر ، فقد كان في فجر شبابه أديباً له ميل إلى التاريخ ، وكتب التاريخ ونحوها من الأسفار كالموسوعات أو مايتعلق بها كالدوريات مثلاً . فهل كان في بقية سني حياته كذلك ؟ أو بالأحرى ماذا أصبح بعد ذلك ؟

الرحالة الإنجليزي داوتي ، قص شيئاً من قصة البسام في أول حياته ، قصها كمعاصر ومشاهد ، لا ، بل قصها كجليس ومؤانس . وإذا كان داوتي روى بداية البسام ، عن معاشرة وقرب ، فإن عالماً آخر ، وإن كان متأخراً ، وأقل منه بالتأكيد معاصرة ، إلا أنه بسام لصيق بعشيرته قوى الصلة بها ، وفوق هذا عالم ضليع مطلع على تراثها وتاريخها . الشيخ عبد الله البسام يكمل مابدأه داوتي ، بل ويدعمه حيث يقول في ترجمة المؤرخ ابن بسام : «والقصد أن المترجم له مع أعماله التجارية كانت هوايته ورغبته في القراءة والمطالعة وجمع الكتب وأغلب ميوله إلى التاريخ والأدب والسياسة ومعرفة أحوال البلدان والرحلات ، فصارت لديه ثقافة ومعلومات واسعة في هذا الباب . فتحصيل المترجم له للعلم هو من المطالعات ومجالسة العلماء والأدباء والمفكرين ، وليس من دراسة منظمة في حلقات العلم فحسب . لذا فإن مشاركته في العلوم الشرعية والعلوم اللسانية ليست كبيرة .»[١٥٨]

قول البسام «فتحصيل المترجم له للعلم هو من المطالعات ، وليس من دراسة منظمة في حلقات العلم فحسب» . كلمة «فحسب» هنا تعني «فقط» ومجمل معنى الجملة قد يعني بأنه على الرغم من أن المؤرخ ابن بسام سلك درب التعلم لا التعليم ، إلا أنه كان له نصيب من الاحتكاك ببعض العلماء وحلقاتهم ، ولكن على مايبدو كان هذا بشكل محدود ، إذ إن مشاركته في العلوم الشرعية واللسانية لم تكن كبيرة ، كما قال الشيخ البسام . ورواية البسام هذه توحي إن لم تثبت مشاركة المؤرخ ابن بسام وإن كان قليلاً جداً في حلقات بعض علماء عصره على أي شكل كان ، الأمر الذي ينسجم مع ماقيل في أول هذه الدراسة ، من توقع استفادته من الشيخ ابن عائض الذي

ثبتت صلته القوية به . والشيخ إبراهيم بن عيسى عالم آخر ربطته صلة وثيقة حميمة بأسرة البسام ككل في عنيزة[١٥٩] . وابن عيسى كان معاصراً للمؤرخ ابن بسام[١٦٠] ، ولعله والحالة هذه ، كان معاصراً قريباً منه . ومع جميع المؤشرات التي توحي بعلاقة ابن بسام بهذا العالم واستفادته منه ، فإن المرء قد لايعدو الحقيقة بالقول إن كان المؤرخ ابن بسام قد استفاد من ابن عايض في أول حياته ، فقد توجها ، بفائدة عظمى من هذا العالم الجليل . لعل ابن عيسى كان رافداً هاماً نهل منه المؤرخ ابن بسام واستفاد .

وكلمة «فحسب» التي أوردها الشيخ ابن بسام في النص تدفع المرء لأن يبحث في كتب التراجم وغيرها ، علّه يعثر على اسم شيخ قد يكون المؤرخ ابن بسام تتلمذ على يديه أو أخذ عنه شيئاً من العلم . ولكن باء البحث بلا شيء ، مما يؤكد محدوديته القصوى في هذا المجال ، وانصرافه ، معتمداً على نفسه ، نحو الأدب وفنونه كالتاريخ وخلافه . ولهذا السبب يقول الشيخ البسام بأن أغلب ميوله كانت إلى التاريخ والأدب والسياسة .

الميل إلى الأدب والتاريخ والسياسة بالنسبة للمؤرخ ابن بسام لم يأت عن فراغ إن هذه الرواية تذكر بما قاله داوتي عنه في أول حياته تذكر بما قاله عن اطلاعات ابن بسام على كتب التاريخ والموسوعات ونحوها ، كما تذكر أيضاً بنعت داوتي له وصديقه «بالأدباء» وتذكر مرة ثالثة ، عندما وصف داوتي جلساءه ومن بينهم البسام بالساسة المطلعين . تذكر بكل هذا وتؤكد استمرارية الميل العلمي لابن بسام . تذكر وتؤكد مواصلته لطريق الأدب والتاريخ ، ذلك النهج الذي اختطه لنفسه منذ أن كان شاباً يافعاً .

المؤرخ ابن بسام ، كما في النص ، يجمع الكتب ، والنتيجة الحتمية والسليمة أو المتوقعة لهذا الجمع هى قراءة هذه الكتب ومعرفة مافي بطونها . وهي بالنسبة لهذا المؤرخ قراءة ومطالعة ، بل مطالعات . وتكرار كلمات كمطالعة ومطالعات ورديفتهما القراءة ، في هذا النص ، لاتعنى سوى شيء واحد ، هو التأكيد أو الترسيخ لهذا الاطلاع أو المطالعة ، والذي لايعني عند الرحالة داوتي ، بالنسبة لهذا المؤرخ ، سوى «الانكباب» على الكتب والمطالعة حتى الفجر[١٦١] . فنهج المؤرخ في التعلم ، لم يحد عنه قيد أنملة ، كما كان في فجر حياته ، كان في ضحاها ، وعصرها ، بل وحتى عند غروبها ، نهج في القراءة والاطلاع مكين .

وهو يعب من معين القراءة الزاخر ، لم ينس المؤرخ ابن بسام رافداً آخر . على جانب من الأهمية في العلم والمعرفة يذكر ، إنها مجالسة العلماء والأدباء والمفكرين ، كما قال الشيخ البسام . فقد حفلت حياته بمجالسة هذه الصفوة المختارة من الناس ، وكان لصفاء طبعه الأثر الكبير في ذلك . وعند ترجمة هذا إلى لغة الواقع والتطبيق ، فإنه بالإضافة إلى العلماء المشار إليهم آنفاً ، فقد حظى ابن بسام بمجالسة الكثير من الأدباء والمفكرين ، سواء من أهل بلدته أو أولئك الرحالة الزوار . جالس

هؤلاء طوال حياته دون انقطاع . في ريعان شبابه ، دعا الرحالة الإنجليزي داوتي إلى قهوته في عنيزة ، وكان الحديث في الأدب والتاريخ[١٦٢] . وإذا كان هذا الرحالة قد رسم صورة لابن بسام الشاب وقهوته التي كان يستقبل فيها ضيوفه من الأدباء وغيرهم ، فإن الشيخ البسام بعد ذلك بفترة طويلة رسم صورة مماثلة لهذا المجلس ، ولكنه هنا في مزرعته «المويهرية» حيث يقول : «والمترجم له من الأعيان الوجهاء في بلده وغيرها ويحرص الأمراء والعلماء والأعيان على مجالسته ومنادمته والاستفادة منه ، فبستانه الغني بالماء العذب وأشجار النخيل والفاكهة مزار لمحبيه ومجالسيه ويجدون الصدر الرحب والنفس الطيبة والبشاشة والطلاقة . كما يجدون عنده حسن المجالسة والمؤانسة .»[١٦٣] وبعد أن أثقلت كاهله السنون ، في خريف العمر ، أنس ابن بسام ، أو أنس به ضيف أو رحالة آخر في هذه المرة كان عربياً مثله ، انه المفكر والفيلسوف أمين الريحاني . دعاه في هذه المزرعة ، وكان الحديث بينهما ذا شجون تخطى الأدب والتاريخ وسمت به طيبة روحيهما فحلق في جو من الألفة والود العميق[١٦٤] .

وإذا كان ابن بسام استفاد من مجالسة الكثير من الأدباء والمفكرين ، فإن في الرحلات والسفر فوائد معروفة ، وقد أصاب الشيخ البسام حينما عدها واحدة من الطرق التي تعلم بها مؤرخنا وتثقف[١٦٥] . سافر المؤرخ ابن بسام إلى بلدان كثيرة كالعراق ومصر والهند[١٦٦] ، بالإضافة إلى الأماكن المقدسة . وفي بعض هذه البلدان كالهند مثلاً ، أقام فترات متقطعة ليست بالقصيرة استمرت وقتاً طويلاً من حياته .

هذه إذن مجتمعة هي الروافد التي غذت ثقافة المؤرخ ابن بسام وصقلت روحه واكسبته علماً وتجربة عد لأجلها ، واحداً من علماء الجزيرة ومؤرخيها البارزين .

والصورة أو الصفة التي تؤخذ مما أورده الشيخ ابن بسام في نصه عن البسام المعني بهذه الدراسة هي صفة أو شخصية «الأديب المؤرخ» . وقد قال بهذا معظم العلماء الذين تعرضوا لابن بسام أو لتاريخه . وحتى الشيخ البسام نفسه ، عندما لقبه «بالشيخ» ودعاه بهذا اللقب الذي عادة مايطلق على علماء الشرع الشريف ، أردفه بكلمة «المؤرخ» . قال : «الشيخ المؤرخ»[١٦٧] ولعله فعل هذا توضيحاً وتمييزاً له ولثقافته التي تختلف عن هؤلاء .

ويروى العلامة الشيخ حمد الجاسر ، نقلاً عن أحد علماء عنيزة ووجهائها وهو الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز بن زامل آل سليم قوله عن المؤرخ ابن بسام : «. . . ويظهر أنه لم يشتغل بطلب العلم متجرداً له ، ولكنه أديب مثقف . . .»[١٦٨] .

وهذا النص على اختصاره ، ربما أوحى بكل ماعناه الشيخ البسام في نصه السابق . على أن المهم فيه هنا هو تحديد شخصيته أوهويته العلمية بأديب مثقف ، الأمر الذي يتفق أيضاً مع ماجاء في قول الشيخ البسام وما قاله عنه أمين الريحاني حيث وصفه بالعلم والأدب[١٦٩] . وهكذا قال بعض

العلماء والباحثين الآخرين كالشيخ محمد بن عثمان القاضي الذي قال عن المؤرخ ابن بسام ، وهو في صدد تعداد العلماء والأدباء والمؤرخين من أسرة آل بسام : «وعبد الله المحمد العبد العزيز البسام أديب بارع ومؤرخ شهير وشاعر . . .»[١٧٠] وقال أيضاً في ترجمته لأحد العلماء القضاة : «. . . تولى قضاء عنيزة نقلاً عن تاريخ الأديب عبد الله المحمد البسام نزهة المشتاق فقد قال : . . .»[١٧١]

إذن الشخصية أو الهوية العلمية ، لعبد الله بن محمد البسام ، في نظر هؤلاء العلماء كالشيخ ابن بسام والسليم والقاضي وربما غيرهم ، هي «الأديب المؤرخ» ورأى الرحالة داوتي قبلهم في الشاب ابن بسام ، عن قولهم هذا ليس ببعيد . فقبل هؤلاء بما يربو على القرن والربع من الزمن ، قال داوتي بهذا الرأى تصريحا مرة ، وتلميحاً أخرى . وهذا لايعني سوى شيء واحد ، وهي الاستمرارية لمسيرة ابن بسام الثقافية أو العلمية منذ جذورها الأولى ، حيث كان شاباً أديباً منكباً على كتب التاريخ ونحوها كما روى داوتي ، إلى أن كبر ونضج وأثمرت هذه الجذور «أديباً مؤرخاً .»

هذا الأديب المؤرخ ، كعادة بعض علماء عصره ، لم يقتصر على مجال من العلم أو الأدب واحد ، بل كان له ، بجانب التاريخ ، حظ من المعرفة في علوم وفنون أخر .

ماخاب ظن الإنجليزي داوتي عندما قال عن الشاب ابن بسام ، إنه قارىء ومطلع على شعر العرب وشعرائهم[١٧٢] . قراءاته للشعر صقلت حسه ، فتذوق الشعر وقرضه حتى عده البعض شاعراً . فبالإضافة إلى ماقاله القاضي في النص أعلاه ، هناك إشارات أخرى توحي بمشاركة ابن بسام في ميدان الشعر ، وإن لم يعد بالضرورة شاعراً .

وربما هزت عاطفته المناسبات ، فجادت قريحته فيها بشيء من الشعر ، كوفاة عزيز ربطته به مودة وصداقة . قال في تاريخه «تحفة المشتاق» : «وفي سنة ١٣٢٨هـ يوم الخميس ١٨ ربيع آخر توفى الشيخ عبد العزيز بن على بن محمد بن إبراهيم رحمه الله ، وكانت وفاته في سورة من بلاد الهند . وقد قلت فيه أبياتاً بعد وفاته ، بيت التاريخ منها :

وقــد قلت في هذا ختامــاً مؤرخــاً ... لعبـد العزيـز الفـوز مذحـم نقلـه[١٧٣]

فهذه كما يبدو قصيدة رثاء وتأبين تحتوى على العديد من الأبيات الشعرية ، ولكنه اكتفى كما قال بذكر بيت التاريخ منها ، والذي يوضح سنة الوفاة فقط .

وكما تؤثر عليه المآسي ، تهزه المناسبات السعيدة فيقول الشعر فرحاً مستبشراً كما حدث في عام ١٣٤١هـ ، عندما تدفق الماء غزيراً عذباً من بئر بستانة «المويهرية» فطرب لهذه المناسبة السارة ، وأرخها بأبيات من الشعر قال فيها :

«رجوت رحيماً واستعنت بعونه ... كمستمطر يرجو المنى من غمامه
على حفر بئر فاق ماكان قبله ... فجاء نميراً يستقي من جمامه
ولما استتم البئر قلت مؤرخاً ... حمدت كريماً من لي بتمامــــه»[١٧٤]

والمؤرخ ابن بسام ، كما تواتر عنه ، على جانب كبير من اللطف وحسن الخلق ، وحب المجالسة والمؤانسة وصبغت شخصيته بروح الدعابة . الدعابة التي ربما ترجمها أحياناً شعراً . قال الجاسر نقلاً عن عبد الرحمن الزامل السليم : «. . . وربما نظم بعض المقاطيع الشعرية الفكاهية التي لها صلة ببعض أصدقائه .»[١٧٥]

ورواية عبد الرحمن الزامل السليم هذه تنسجم مع ماقاله داوتي عن عبد الله البسام الشاب صاحب الروح المرحة الخلوقة .

ولعل ابن بسام قال شعراً كثيراً ، ولكن هذا هو كل ماعرف من شعره وماقيل فيه ، وهو من القلة بمكان لايتمكن معه الباحث من الحكم عليه إلا بشيء واحد فقط هو القول بمقدرته على قرض الشعر ونظمه . قرض الشعر ونظمه فقط دون تحديد المستوى والنوع . ولولا ذكر ابن سليم لشعر له روح الفكاهة نظمه البسام لبدا شعره ربما كشعر بعض الفقهاء والنحويين يفتقر إلى روح الحلاوة والطلاوة .

وابن بسام ، كشاعر ، لم يكتف بقرض الشعر فقط ، وإنما جمع وانتقى مااستطاب منه ومن غيره من مواعظ الأدب وحكمه . قال الشيخ البسام : «كما ألف مجموعا في الأدب والحكم والأشعار وسماه (الدليل المفيد لمن هو للدين والدنيا مريد) . قال عن تاريخ ابتداء تصنيفه هذا الكتاب (قد اعتنى بجمعه لنفسه أحقر الأنام عبد الله بن محمد العبد العزيز البسام مبتدأ به سنة خمس وثمانين بعد اثنى عشرة من المئين من هجرة من له الفضل والشرف»[١٧٦] .

ماورد في هذا النص هو كل ماهو معروف ومتوافر عن هذا الكتاب ومحتواه . ولعله بجانب ماجمع ، ضمنه بعض شعره هو نفسه وربما نثره أيضا . على أن قوله «قد اعتنى بجمعه لنفسه» تجعل المرء قد يستبعد مثل هذا الاحتمال . إذ توحي هذه العبارة بأن الكتاب يحتوى على مجموعة مختارة من الحكم الأدبية والأشعار النادرة الثمينة ذات المعنى البليغ والأسلوب الرفيع ، والتي شدت انتباهه فانتخبها لنفسه وانتقاها واحتفظ بها كقطع من الأدب الراقي الفريد .

ويبدو أن ابن بسام في الشعر ، قد تعدى القرض والجمع إلى الحفظ وخصوصاً النبطي منه ، إذ يعج تاريخه «تحفة المشتاق» ويزخر بما استشهد به من هذا الشعر . وإذا كان المؤرخ عثمان بن بشر أحجم عن إيراد مثل هذا النوع من الشعر في كتابه «عنوان المجد» متقيداً بقواعد اللغة وفصيحها من الشعر[١٧٧] ، فإن ابن بسام التزم جانب المؤرخ والتأريخ فقط في هذا المجال وفضله . ولم ير بأساً من إيراد شعر كهذا دعماً وبرهاناً لبعض ماكتب من حوادث وأخبار . رأى فيه الخبر والحدث أو الحكمة ، ولم يأبه لموقعه من الفصحى . طعم تاريخه بأبيات لشعراء النبط الكبار ، وعلى رأسهم أميرهم حميدان الشويعر ، والشاعر محمد بن لعبون وغيرهم كراكان بن حثلين وراجح الشنبري وأحمد أبو عنقا[١٧٨] . كل هؤلاء ذكر لهم شعراً مستشهداً به ، ولعله أول مؤرخ نجدي فعل هذا[١٧٩] .

الجغرافيا مجال آخر كان على مايبدو ، للمؤرخ ابن بسام أيضاً باع فيه . فقد عد الشيخ البسام «معرفة أحوال البلدان»(١٨٠) كواحدة من المعارف التي كان لدى هذا المؤرخ ميل إليها . و «معرفة أحوال البلدان» في معناها البسيط أو القريب قد لاتعني في معظم الحالات وأعمها سوى «معرفة أحوال البلدان الجغرافية» وقريباً كانت تدعى أو تسمى بعض مؤلفات الجغرافيا وكتبه بـ «تقويم البلدان» وموقع هذه العبارة من نص البسام ، بين الصفات الأخرى ، لاتوحي بأنه قصد غير هذا المعنى .

إنه لمن غرائب المصادفات أن يكون المؤرخ ابن بسام واحداً ممن نفيت عنهم صفة مهمة كالعلم بالجغرافيا أو معرفته . ففي أواخر القرن الثالث عشر الهجري ، حوالي عام ١٢٩٥هـ أتى الرحالة الإنجليزي داوتي ، كما تقدم ، وقال بأنهم لايعرفون الجغرافيا تقريباً ، لافي عنيزة ولا في سوريا ، مدعيا بأنها أصلاً ليست من العلوم السامية . وبعد خمس وأربعين سنة من زيارة هذا الرحالة ، يأتي رحالة آخر لالينفي فقط ما ادعاه سابقه ويثبت عكسه ، بل لينهل أيضاً ويستفيد في الجغرافيا من أحد أولئك الموصومين ظلماً بجهل هذا العلم .

قال الرحالة أمين الريحاني متحدثاً عن مصادره والعقبات التي واجهته في هذا الشأن : « . . . في النبذة الأولى : نواحي نجد ، وهي لاتخلو من صعوبة إذا تحرينا التدقيق في ضبط الأسماء ، أسماء البلدان ، فكتب السياح المستشرقين تضلل غالباً في اعلامها ، وكتب الأقدمين العرب تروي أسماء بلدان دثرت ، وأسماء للبلدان التي لاتزال في عالم الوجود غير المصطلح عليها لفظاً ومبنى . لابد إذن من الاستعانة بأحد علماء نجد المعاصرين»(١٨١) .

ويجد الريحاني ضالته هذه في المؤرخ عبد الله بن بسام ، حيث يواصل قائلاً : «وكنت قد استعنت عندما مررت بعنيزة بالشيخ عبد الله بن محمد العبد العزيز البسام ، فكتب لي لائحة بأسماء بلدان القصيم وسدير والعارض ، وبت انتظر وصول المعلومات الأخرى»(١٨٢) .

ويؤكد الريحاني مرة أخرى على فقه المؤرخ ابن بسام ، وفهمه في الجغرافيا قائلاً : «فإنك ترى مما تقدم أن أهم مصادر النبذات الثلاث هي نجدية ، أي إن ابن بشر هو ركن النبذة الثالثة ، وابن غنام وابن تيمية ركنا النبذة الثانية ، والسلطان عبد العزيز ، الملقب بجغرافية البلاد العربية ، والشيخ عبد الله البسام الذي قال فيه عظمة السلطان أنه من العارفين المدققين ، هما(١٨٣) مرجعي في النبذة الأولى»(١٨٤) .

ومن هذا يتضح ان ابن بسام كان ثاني اثنين استفاد منهما الريحاني واعتمد عليهما فيما يتعلق بالجغرافيا . وماجاء في هذا النص لايحتاج إلى مزيد من القول بأنه كان على دراية ومعرفة بهذا العلم .

وقبل استعراض ماقد يلقى الضوء على ثقافته وعلمه ، مما جاء في صلب كتابه «تحفة المشتاق» الذي يعد في واقع الأمر المجال أو الصرح الأساسي لابن بسام حيث اشتهر وعرف به ، تجدر الإشارة

إلى الأنساب أو علم الأنساب الذي على مايبدو كان له حظ وافر فيه . فقد ذيل تاريخه «تحفة المشتاق» بملحقين أو تذييلين صغيرين عنها . الملحق الثاني عنوانه «تذييل ثان عن أنساب بعض البطون من قبائل تميم»[١٨٥] وهو لم يقتصر على قبيلة تميم كما في العنوان ، وإنما تعداها إلى ذكر بعض القبائل الأخرى . وابن بسام بالإضافة إلى قصر ملحقه هذا واختصاره ، لم يأت فيه بجديد عما جاء في معاجم القبائل وكتب الأنساب الأخرى . أما الملحق الأول فعنوانه : «تذييل عن عنيزة والبطون التي تنزلها - زمن المؤلف - من بنى تميم ، متصلة بالكتاب»[١٨٦] ، ومرة أخرى على الرغم من أن العنوان يوحي بأنه سيقتصر فقط ، على ذكر الأسر أو البطون التي تنتمي إلى هذه القبيلة أو تنحدر منها ، إلا أنه بجانبها ذكر كثيراً من الأسر التي ترجع إلى قبائل أخرى .

وابتدأ هذا الملحق قائلاً : «عنيزة قاعدة بلاد القصيم ، والرياسة فيها الآن لآل سليم من بني ثور من سبيع . وآل سليم هم من أولاد سليمان بن يحى بن على بن عبد الله بن زامل ، وسليمان هو الملقب سليم .»[١٨٧] ثم استمر في سرد بقية الأسر . ومن المؤكد أن ابن بسام لم يذكر أو يحصي كل الأسر التي كانت تسكن عنيزة آنذاك ، ولايتوقع منه ذلك لاسيما في مدينة واسعة كعنيزة . فنظرة على بعض المؤلفات الأخرى في الأنساب ، ككتاب «منهاج الطلب عن مشاهير قبائل العرب» للمؤرخ الشيخ محمد بن عثمان القاضي تثبت ذلك . على أن هذا الذيل أو الملحق مهما كان مختصراً ومحدوداً ، يشير إلى ميل ابن بسام واهتمامه بالأنساب ومجالها . كما يشير من ناحية أخرى بالإضافة إلى ماذكره في مقدمة كتابه[١٨٨] . إلى مصدر من مصادره وهى الرواية الشفوية التي استفاد منها . فهى والحالة هذه والمهم هنا تعد واحداً من روافده الثقافية . لقد دأب ابن بسام ، عند إشكال نسب ماعليه ، على السؤال والتحري ، وأحياناً يسأل المعنيين بالأمر أنفسهم . قال : «وسألت ابن سحيم عن نسبهم فقال : إننا من الوهبة من تميم ، وإن جدنا سحيم انتقل من بلد أشيقر وسكن في وادي عنيزة ، وإننا من آل يوسف المعروفين في أشيقر وفي عيون القصيم .

وسألت فوزان القريشي عن نسبه فقال : إننا من الوهبة من تميم . . .»[١٨٩] .

واهتمامه بالأنساب أمر واضح وملاحظ في ثنايا تاريخه «تحفة المشتاق» ، فعند ذكره لعلم من الأعلام كعالم أو قاض ، أو أمير أو تاجر ونحوه ، غالباً ماينسبه إلى قبيلته أو عشيرته التي ينتمي إليها . وهو بهذا يبّز المؤرخ ابن بشر ولكنه بحال من الأحوال ، لايضارع المؤرخ النسابة ابن عيسى .

وبعد استعراض هذه التذييلات أو الملاحق ، تجدر العودة إلى التاريخ نفسه «تحفة المشتاق» في محاولة لتطبيق ثقافة مؤلفه عليه ، أو بالأحرى معرفة عما إذا كان هذا الكتاب ومحتواه يعكس ثقافة وعلم هذا المؤلف ؟ وإلى أي حد كان هذا ؟

الأسلوب واللغة التي كتب بها ابن بسام تاريخه «تحفة المشتاق» تتفاوت من مكان إلى آخر من حيث القوة والضعف ، أو الاختصار والإسهاب . يختصر غالباً ، عندما يكتب عن حوادث

تاريخ نجد ربما لأن المصادر لاتسعفه بمادة تاريخية ثرية . ويسهب وأحياناً بشكل ممل ، عندما تجود عليه المصادر ، كما في الحوادث التي دونها عن الحجاز . ولغته وأسلوبه فيما ينقل ، يكون تبعاً للمصدر الأصلي من حيث القوة والضعف ، مع بعض التعديلات الطفيفة . أما فيما يكتبه هو بنفسه فيتسم بالاختصار ، وأحياناً الاختصار الشديد ، ولكن ليس الاختصار المخل كما في تاريخ الفاخري . أما لغته فهي بسيطة سهلة العبارات ، مفهومة المدلول والمعنى ، إلا من كلمات نجدية قد تصعب على البعض الذي يرى فيها كلمات عامية محرفة عن الفصحى ، وهو أمر على مايبدو غير صحيح ، إذ يرى بعض اللغويين غير ذلك . يقول الشيخ محمد بن ناصر العبودي : «. . . عندما نزل القرآن الكريم بلغة قريش التي هى أفصح لغات العرب كلها كانت هناك عدة لهجات في سائر أنحاء الجزيرة العربية مخالفة بعض المخالفة للغة قريش ، منها لهجة أهالي نجد بل لهجات أهالي نجد ، فقد كانت للقبائل النجدية لهجات خاصة بها .»[١٩٠]

ويواصل قائلاً : «إن اللغة النجدية المحلية الآن هي سليلة لغة عربية فصيحة كانت شقيقة للغة الفصحى لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم وبخاصة مايتعلق بمفردات اللغة . مع تكرار القول بأننا نريد باللغة هنا مايسمى الآن باللهجة . وأن البعد الذي يلاحظه المرء فيما بين تلك اللهجة وبين اللغة الفصحى القرشية ناشيء عن عدة عوامل : . . .»[١٩١] .

بالإضافة إلى هذا ، فالبسام كابن بشر يستعمل لغة «أكلوني البراغيت» ، ومع كون هذه اللغة ضعيفة فهى فصيحة . ولغة ابن بسام في مجملها ، لولا اختصار عباراتها ، وكثرة الكلمات النجدية لعدت موازية للغة ابن بشر .

وكان يتوقع أن تكون اللغة التي كتب بها تاريخه ، أرفع مما هي عليه وأتقن ، وذلك لما قيل عن ثقافة ابن بسام الواسعة وما تمتع به من إدراك ونضج أدبي عال أهله لأن ينظم شعراً لاغبار عليه من ناحية القافية واللغة ، كما بدا بالسجع ملماً ، إذ سمى كتابيه سجعاً[١٩٢] . والحالة هذه ، فإن المرء كان يتصور أن تأتي لغته منسجمة مع مستواه الأدبي لا أن تكون دونه ، الأمر الذي يدعو إلى الحيرة والتساؤل . وفي محاولة لفهم هذا الغموض ، فإن معاصره المؤرخ ابن عيسى قد يفيد في هذا الشأن . ابن عيسى ألف كتابين في التاريخ ، الأول «تاريخ بعض الحوادث» والثاني «كتاب عقد الدرر»[١٩٣] .

وفيما يتعلق باللغة والأسلوب فالبون بين هذين الكتابين شاسع واسع . فبينما كتب الأول بلغة وأسلوب بسيط على السجية ، كتب الآخر بعبارات ولغة فصحى مجودة ، وأسلوب راق رفيع . واستشهد بكثير من القصائد الفصحى الطوال . عبارات «تاريخ بعض الحوادث» تشبه بل تماثل وتطابق تلك التي في ابن بسام ، خصوصاً فيما يتعلق بتاريخ نجد ، تماثلها من حيث الأسلوب واللغة ، واستعمال الكلمات النجدية ، بالإضافة إلى الأخطاء النحوية ، والاختصار ، ومن يقرأ هذا

الكتاب سيحكم بلا شك على أسلوب ولغة ابن عيسى بهذا الواقع المتواضع ، وسيعتقد بأن هذا هو مستوى لغة المؤلف الحقيقي وأن أسلوبه هذا ، هو غاية إبداعه واستطاعته . غير أن لغة ابن عيسى التي تعكس مستواه العلمي واللغوي الصحيح ، هي تلك التي كتب بها «عقد الدرر» ذلك الكتاب الذي ألفه بإيعاز من الملك عبد العزيز(١٩٤) فاهتم بصناعة لغته وحسنها ، فأتى مخالفاً لكتابه «بعض الحوادث» الذي كتبه على السليقة والسجية ، متأثراً ، ربما بمن سبقه من بعض المؤرخين النجديين الذين اعتادوا هذا النوع من الكتابة .

على تمكن ابن عيسى من اللغة وسيطرته على قواعدها فعل هذا ، فهل فعل ابن بسام نفس الشيء ؟ هل تباسط في لغته وأسلوبه مع مقدرته على الاتقان والإجادة ؟ في حالة ابن عيسى ، وجد كتاب آخر له فحسم الأمر ، أما بالنسبة للبسام فلا زال السؤال قائماً . ويزيد في تلجلج هذا السؤال وبروزه بالإضافة إلى ماقيل عن الشعر والسجع ، تلك الومضات في تناسق الجمل والعبارات ، أحياناً ، مما يرجح مقدرته على صناعة اللغة والأسلوب المتقن لو رغب فيهما .

وطالما أن الحديث حول لغة وأسلوب المؤرخ ابن بسام ، فتجدر الإشارة هنا إلى بعض قدراته الأخرى المرتبطة بهما .

فالخط الغالب لهذا المؤرخ ، على مايبدو ، كان خط النسخ الذي امتاز بالوضوح والترتيب ، كما قال نور الدين شريبة ، والذي يعني أن خطه كان حسناً متقناً ، هذا مع إجادته لبعض الخطوط الأخرى كالخط الفارسي ، وربما الثلث أيضاً(١٩٥) .

وأول مايواجه القارىء لتاريخ ابن بسام المخطوط «تحفة المشتاق» تلك القائمة من الحوادث - جعلها في مقدمة تاريخه - والتي قال في أولها : «وقد جعلت الابتداء به في ذكر بعض الحوادث التي ابتداؤها من أول الهجرة على سبيل الإيجاز لأنها مما يرغب الوقوف على حدوثها»(١٩٦) .

وعبارته الأخيرة : «لأنها مما يرغب الوقوف على حدوثها» توحي بانتقائه واختياره لتلك الحادثة أو الخبر مفضلاً إياها عما عداها من أحداث ذلك العام ، ولعلها كانت أهم ماحدث فيه ، لهذا اختارها . حيث قام بذكر السنوات الهجرية ، وإن كانت متدرجة فهي غير متصلة ببعضها ، وذكر حدث واحد فقط أمام كل منها .

ففي السنة الأولى من الهجرة مثلاً ، ذكر تأسيس مسجد قباء ، وفي السنة العاشرة سجل حجة الوداع . وفي سنة ١٤٥هـ أرخ ابتداء المنصور في بناء بغداد . وقال في عام ٣٥٩هـ «بناء الجامع الأزهر والانتهاء سنة ٣٦١هـ» وأورد حدثاً ثانياً أمام نفس العام «إدخال العرب أرقام الحساب في أوربا» وقال أمام سنة ٤٩٣هـ «استيلاء الصليبيين على بيت المقدس» . وفي سنة ٥٨٩هـ أرخ وفاة أحد مشاهير قادة المسلمين : «وفاة صلاح الدين الأيوبي الكردي» . وفي سنة ٦١٦هـ أرخ «دخول الفلك والجغرافيا في أوربا» . أما في عام ٦٥٦هـ ، فقد أرخ سقوط الدولة العباسية ببغداد ، أو انتهاءها كما قال . وفي سنة ٧٣٩هـ قال : «أول استعمال الانقليز للمدافع» ثم

ذكر في سنوات لاحقة عدة اختراعات منها على سبيل المثال «اختراع المطابع للكتب في أوربا» ذكر هذا أمام عام ٨١٩ . ولم ينس أن يذكر أمام عام ١٢٠٤ «اختراع المطابع للكتب العربية» كما قال . وحول الكتب والمطابع قال أمام سنة ١٢٣٨هـ «إنشاء مطبعة بولاق بمصر» . وفي عام ٨٧١هـ شده ذلك الحدث العظيم «اكتشاف الكهرباء بأوربا» . وأمام هذا الاختراع الضخم لم يهمل حدثاً آخر على ضآلته يعد ضرورياً كاختراع عيدان الكبريت في باريس سنة ١٢٣٤هـ كما قال . وعن الإنجليز كتب أمام عام ١١٥٣هـ «انشاء أول معمل للحديد عند الانقليز» ولم ينس أن يسجل تلك الحوادث المؤلمة في تاريخ العرب والمسلمين قال أمام عام ٨٨٥هـ» حرب أسبانيا مع عرب الأندلس . ثم قال في عام ٨٩٧هـ «خروج العرب من الأندلس» كما ذكر الحملة الفرنسية على مصر قال أمام عام ١٢١٢هـ «قيام تجريدة فرنسا على مصر» . كما دون بعض الاكتشافات الطبية . قال أمام عام ١١٩٠هـ «اكتشاف تطعيم الجدري» . وهذه أمثلة فقط تعطي صورة عامة لهذه القائمة من الأحداث التي ذكرها هكذا أشبه بالعناوين دونما شرح أو تفصيل . استمر فيها حتى سنة ١٢٩٤هـ . وهى فترة حياة المؤلف المبكرة . وتتفاوت هذه الأخبار أو العناوين بين حوادث التاريخ سواء العربي والإسلامي أو الأوربي والأمريكي . وتشتمل على الكثير من الأحداث الحضارية كالمخترعات العلمية أو الاكتشافات الطبية . كما لم ينس أن تتضمن هذه القائمة وفيات بعض العلماء الهامين كأبي حنيفة والشافعي . على أن أحداث مسيرة الحضارة كالمخترعات العلمية ، من صغيرها كالكبريت ، إلى أهم مافيها كالكهرباء ، هى الطابع المسيطر على هذه القائمة .

التفات المؤرخ واهتمامه بتدوين أمور عظيمة كهذه ، قد لايوحي إلا بحس حضاري رفيع ، وذوق عصري وفهم لطبيعة الأشياء وإدراك ، تميز به هذا المؤرخ في فترة كانت تعد مخترعات كهذه لدى بعض الناس ، مساً من الجان ، أو ضرباً من السحر والشيطان .

وتعكس هذه القائمة ، في تنوع أحداثها ، جانباً كبيراً مما أحرزه ابن بسام في درب العلم والمعرفة . هذا الدرب الذي بدأه مبكراً بخطوات ثابتة من الاطلاع العميق ، والانكباب على الأسفار والكتب ، حتى تباشير الصباح ، واستمر فيه إلى أن وصل إلى بوابة المعرفة الواسعة ، فدخلها كواحد من مؤرخي نجد ، بل جزيرة العرب البارزين . مسيرة البسام الطويلة على جادة العلم والمعرفة كانت مشرقة وبراقة بهرت معاصريه المجالسين له وغيرهم ، فأدوا بصدق شهادة الحق والعرفان . شهد الريحاني بعلمه وأدبه وروحه العصرية . ويبدو أن سمعة ابن بسام العلمية كان لها شيء من الصدى في آفاق الجزيرة ، إلى الدرجة التي جعلت الملك عبد العزيز ، على كثرة أشغاله وإنشغاله ، يقول عنه : «إنه من العارفين المدققين» . وقبل هؤلاء بزمن طويل شهد له الأباعد كالرحالة الإنجليزي داوتي الذي شهد بجده واجتهاده في التحصيل وطلب العلم والمعرفة منذ أن كان شاباً يافعاً . وفي حين أنصفه هؤلاء وأثنوا عليه ، قسا عليه بعض الباحثين ، فلم يروا من مسيرته المشرقة

هذه سوى ذلك الظل الخافت الذي يجمعه بمعاصره ، وربما صديقه ابن عيسى . نسي بعض الباحثين علم ابن بسام ، وذكروا فقط هذا الركن الضئيل الباهت ، ذكروه وكأنه كل شيء عن هذا المؤرخ ، إلى درجة أن رجع بعضهم اهتمام البسام بالتاريخ أصلاً إلى هذه العلاقة . يقول الشيخ حمد الجاسر : «سبقت الإشارة إلى صلة المؤرخ ابن عيسى بالأسرة البسامية الكريمة في مدينة عنيزة ، وكان من أثر تلك الصلة ، أن وجدنا أحد أفراد هذه الأسرة يعني بالتاريخ ، فيجمع فيه كتاباً يصح القول بأنه يحوي خلاصة ماكتبه مؤرخو نجد عن تاريخ بلادهم . . . ومن ثم يدعوه كتاب : «تحفة المشتاق من(١٩٧) أخبار نجد والحجاز والعراق» .

هذا المؤرخ هو الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد العزيز . . . بن بسام . . .»(١٩٨) فالشيخ الجاسر يرى أن اهتمام وعناية البسام بالتاريخ كان نتيجة لصلته بالمؤرخ الشيخ إبراهيم ابن عيسى . ولا يتوافر الآن تاريخ دقيق يحدد بداية هذه الصلة . ولعلها بدأت في مرحلة متأخرة من حياة ابن عيسى ، حيث كان يتردد على مدينة عنيزة ثم سكنها واستقر بها وتوفى رحمه الله بها فعده البعض محقاً ، واحدا من أهلها ومؤرخيها .

وابن عيسى ، كما تقدم ، ربما عد رافداً استفاد منه ابن بسام ، ولكن ليس أبداً إلى الدرجة التي قد يعزي أن اهتمامه بالتاريخ أصلاً كان نتيجة لصلة كهذه . حيث ثبت من خلال هذه الدراسة أنه كان لابن بسام اهتمام بالعلم وبالذات التاريخ ، اهتمام مبكر سبق صلته بأبن عيسى بعقود من الزمن عديدة . ولا أدل على هذا الاهتمام المبكر من قول تشارلز داوتي ، المتقدم الذكر ، عن انكباب ابن بسام الشاب وسهره حتى الصباح على مطالعات كتب الأدب والتاريخ ، ووصفه أيضاً لابن بسام في رواية أخرى ، بالشاب المتعلم أو الأديب . هذا بالإضافة إلى رواية داوتي الثالثة التي توحي بتحصيل ابن بسام في التاريخ ، وأنه كان على جانب ومستوى من العلم في هذا الحقل مكنه من نقد آراء العامة في بعض مسائله كما تقدم . كل هذا قاله داوتي عن الشاب ابن بسام الذي لم يتجاوز حينذاك الخامسة والعشرين من عمره .

وعند استعراض آراء المعاصرين لابن بسام ، بعد أن شب عوده ونضج وأصبح أديباً مؤرخاً ، نجدهم يجمعون على علمه وأدبه ، فالملك عبد العزيز ، وأمين الريحاني ، وعبد الرحمن الزامل ، وكل منهم كان معاصراً للبسام ومجالساً له ، وصفوه بصفات قوية ، كالعلم والأدب ، وبالأديب المثقف ، وعدوه واحداً من العلماء العارفين المدققين . تلكم صفات ، من ثقات عاصروه وخبروه ، لاتنم إلا عن عالم لم يأت اشتغاله بالأدب والتاريخ من فراغ ، ولا كان من أثر صلة لمعاصره المؤرخ ابن عيسى ، وإنما كان نتيجة وحصاداً لمشواره الطويل في درب التعلم والمعرفة .

وفي محاولة لمعرفة متى بدأ ابن بسام تأليف تاريخه «تحفة المشتاق» ومتى انتهى ؟ ، فإن الشيخ عبد الله البسام يقول في هذا الأمر : «في أثناء إقامته الأخيرة في عنيزة أكمل تاريخه الذي ابتدأ تأليفه

في الهند والذي سماه «تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق»[١٩٩] وإقامته الأخيرة هذه في عنيزة ابتدأت من عام ١٣٢٩هـ[٢٠٠] والمؤرخ ابن بسام نفسه حدد تاريخ إنهاء عمله هذا في عام ١٣٣٥هـ[٢٠١] ومن هذا يتضح جلياً أن ابن بسام قد بدأ فى تأليف تاريخه قبل عام ١٣٢٩هـ ، وقد تصل هذه البداية حتى عام ١٣٢٠هـ أو حتى قبلها بكثير ، وهو أمر وارد جداً وذلك لما عرف عن ابن بسام من اهتمام مبكر في التاريخ والأدب عموماً .

وابن عيسى ، كما هو معروف ، توفى رحمه الله في عام ١٣٤٣هـ وبذا يكون ابن بسام قد بدأ في تأليف تاريخ «تحفة المشتاق» بما يقارب العقدين من الزمن أو تزيد قبل وفاة معاصره ابن عيسى ، كما وأنهى هذا العمل مبيضاً بما لايقل عن العقد من الزمن قبل وفاة ابن عيسى أيضاً ، الأمر الذي يثبت أن ابن بسام قد أتم كتابة تاريخه على حياة ابن عيسى وقبل وفاته بزمن طويل . وبذا يكون تأثره بمعاصره ابن عيسى لايعدو أن يكون تعاوناً أو أمراً شبيهاً بذلك ، كاستفادة عالم من عالم آخر معاصر له ومزامن . وهنا يصدق فقط تصور الدكتور الشويعر الذي قال : «وابن عيسى لو عرفنا أشياء عن حياته الخاصة ، ومتى توقف عن كتابة التاريخ ، لأدركنا بعض القرائن في الحكم له أو عليه ، إذ قد يكون توقف عن الكتابة ، واكتفى بما دون ، مما يجعل ابن بسام وغيره يستقى منه مشافهة ، أو يستقى من المصادر التي يستقي منها ، وهي في الغالب بالنسبة للأحداث المعاصرة : المجلس وحديث الناس المتكرر .»[٢٠٢] ولكن هذا التأثر لايتوقع أبداً أن يصل إلى الدرجة التي تصورها علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر . لاسيما وأن للرجل مثله مثل ابن عيسى مسيرة علمية ، كما وألف كتاباً آخر بجانب التاريخ ، وشهد بعلمه وأدبه رجال ثقات . فهل يستكثر عليه بعد هذا كله تأليف كتاب في التاريخ ، أو أن يقال بأنه كان نتيجة لصلته مع معاصره الشيخ ابن عيسى ؟ .

ويقول الدكتور الشويعر : «وفي هذا الموقف ومايشاكله نجعل للأقدم والأكثر اهتماما الأولوية والريادة ، ولاشك أن فكرة التجميع تاريخياً ، والاهتمام بالأنساب كانت لدى ابن عيسى من السنوات الأولى في حياته ، حيث عرف بذلك في وقت مبكر وتواتر هذا عنه ، حتى أن الملك عبد العزيز رحمه الله قد كتب للسبيعي في شقراء ، أثناء رحلة الريحاني ؛ بالاهتمام به وتمكينه من الإطلاع على تاريخ ابن عيسى كما قال الريحاني .

أما ابن بسام ، فلم تبدأ الفكرة عنده إلا متأخرة ، وبعد أن استقر ابن عيسى في عنيزة ، وتلازما فترة من الزمن ، فقد نقل الناسخ عن المؤلف قوله في صفحة العنوان : (قد تحرر هذا التاريخ في سنة خمس وثلاثين وألف وثلاث من المئين ، وسميته تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق) ، كما ذكر المؤلف في حوادث عام ١٣٤٣هـ وفاة الشيخ المؤرخ إبراهيم بن عيسى» .

قول الدكتور الشويعر هنا ذو شقين :

الأول : التأكيد على أقدمية ابن عيسى ، وهو أمر صريح صحيح .

الثاني : القول بتأخر فكرة التدوين التاريخي لدى ابن بسام ، الأمر الذي يتناقض تماماً مع ماتثبته المصادر التاريخية .

فأقدمية المؤرخ ابن عيسى وريادته في هذا المجال أمر مسلم به ولايمكن أن يطعن به أبداً . فلقد كان واحداً من مؤرخي الجزيرة العربية الفطاحل . وأقدمية ابن عيسى أو أولويته لايمكن أن تحجب أقدمية أو أسبقية معاصره ابن بسام أو أن تؤثر عليها . فكلاهما ذو سبق وذو أولوية في تدوين التاريخ . ولكن الدليل الذي أورده الدكتور الشويعر كبرهان على أولوية ابن عيسى وريادته ، وهو قول الملك عبد العزيز بشأن تاريخ ابن عيسى أثناء رحلة الريحاني ، هو في نفس الوقت يعد دليلاً على أقدمية ابن بسام وريادته هو أيضاً في هذا المجال ، مثله تماماً مثل معاصره ابن عيسى . ألم يقل الملك عبد العزيز للريحاني في نفس المناسبة عن البسام ، إنه من العارفين المدققين ؟ فهذه العبارة بحد ذاتها شهادة له بالسبق المبكر بالعلم والمعرفة بشكل موازٍ زمنياً مع معاصره ابن عيسى . ولايضير البسام أن تاريخه لم يذكر بالنص ، فالتأليف جزء يدخل ضمن نطاق العلم والمعرفة الواسع . وعدم ذكر هذا التاريخ أثناء رحلة الريحاني ، لايعني أبداً عدم وجوده ، مع توافر براهين أكيدة تثبت أنه كان موجوداً ومكتوباً .

إلى جانب هذا ، فقد أشار الريحاني إلى البسام المؤرخ كمصدر شفوي أساسي لمعلوماته التاريخية - بجانب استفادته منه في الجغرافيا - وذلك ضمن فهرس مراجعه وأسانيده الذي ذكر فيه تاريخ ابن عيسى ، حيث أثبت ابن بسام قائلاً . «عبد الله بن محمد العبد العزيز البسام - ٥٠ سنة من الرواية .»[٢٠٤] وقول الريحاني ٥٠ سنة من الرواية تتفق مع أقدم رواية تشير إلى بداية مسيرة ابن بسام العلمية المبكرة ، وهي رواية داوتي كما تقدم .

وقول الملك عبد العزيز مع قول الريحاني هنا وداوتي قبلهما ، بالإضافة إلى توافر الأدلة الأكيدة بوجود مؤلف البسام في التاريخ «تحفة المشتاق» حتى قبل رحلة الريحاني بفترة طويلة لايوحي إلا بأسبقية لابن بسام وأقدمية تجلعه نداً لابن عيسى وإن بزه الأخير من الناحية العلمية وتقدم عليه كثيراً .

أما القول بأن ابن بسام لم تبدأ الفكرة عنده إلا متأخرة ، وبعد أن استقر ابن عيسى في عنيزة ، وتلازما فترة من الزمن . . . فهو قول يتعارض مع ماتثبته المصادر التاريخية كما مر .

فابن عيسى وإن تردد على عنيزة ، إلا أنه لم يستقر ويتخذها سكناً له إلا في عام ١٣٤٢هـ[٢٠٥] والدكتور الشويعر يورد قول ابن بسام نفسه عن تاريخه بأنه تحرر في عام ١٣٣٥هـ كدليل على تأخر فكرة التأريخ لدى ابن بسام . ويتضح هنا أن هذه السنة التي حدد فيها البسام انتهاءه من كتابة تاريخه ، تسبق السنة التي استقر فيها ابن عيسى في عنيزة بما يقارب الثماني سنوات ، مما يجعل هذا دليلاً لابن بسام لا عليه ولا على تأخر الفكرة لديه .

وقد تطرق لمناقشة آراء الشيخ الجاسر والدكتور الشويعر في شأن العلاقة هذه ، لأن الأمر يهم الجذور المبكرة لمسيرة ابن بسام العلمية ، وحقه في المساواة في الأقدمية والأسبقية ، طبقاً لماتثبته المصادر التاريخية ، ولم يهدف من هذه المناقشة دراسة علاقته مع ابن عيسى بحد ذاتها ، والتي هى موضوع مختلف محتاج إلى بحث منفصل .

ولعل هذه الدراسة بتسليطها الضوء خصوصاً على الجذور الأولى والمبكرة لحياة ابن بسام الثقافية ، أو مسيرته العلمية ، ومتابعة هذه المسيرة وتعداد روافدها بعد ذلك ، أعطت هذاالمؤرخ بعض حقه في البروز أو العرض للباحثين والقراء علهَ يتبوأ مكانه اللائق به بين جمهرة المؤرخين فيعرف أولاً ، ومن ثم يتمهد السبيل لدراسة علاقته مع أي مؤرخ كان .

التعليقـــات

(١) عبد الله بن عبد الرحمن البسام ، **علماء نجد خلال ستة قرون** ، (مكة المكرمة : مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ، ١٣٩٨هـ) ، جـ ١ ٢٥٥ ، جـ ٢ ، ٥١٨ – ٥١٩ ، حمد الجاسر ، «**مؤرخو نجد من أهلها**» **العرب** ، ربيع الأول ١٣٩١هـ ، جـ ٩ ، ٧٩١ – ٧٩٢ ، **عن ابن عضيب** انظر : محمد بن عبد الله بن حميد ، السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة ، نسخة مصورة لهذه المخطوطة ، جامعة الملك سعود ، عمادة المكتبات رقم ١٢٨٧ الورقات ١٣٦ – ١٣٩ .

(٢) **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ٩ ، ٧٩١ – ٧٩٢ .

(٣) محمد بن ناصر العبودي ، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (بلاد القصيم)** ، (الرياض : منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٩هـ) ، جـ ٤ ، ١٦٨٩ .

(٤) المرجع نفسه ، ١٦٩١ .

(٥) المرجع نفسه ، ١٦٩٣ – ١٦٩٤ .

(٦) المرجع نفسه ، ١٦٩٧ .

(٧) البسام ، **علماء نجد** ، جـ ١ ، ٢٢ ، جـ ٢ ، ٢٧٤ ، جـ ٣ ، ٦٧٤ .

(٨) محمد بن عثمان القاضي ، **روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين** ، (القاهرة : مطبعة الحلبي ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م) ، جـ ١ ، ٩ .

(٩) **علماء نجد** ، جـ ٣ ، ٦٧٤ .

(١٠) العبودي ، **المعجم الجغرافي** ، جـ ٤ ، ١٦٤٠ .

(١١) المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ٤٦٤ .

(١٢) القاضي ، **روضة الناظرين** ، جـ ١ ، ١٦٢ ، ويقول الشيخ عبد الله البسام بأن هذا التاريخ يتكون من اثنتى عشرة كراسة . **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٣٧٤ .

(١٣) القاضي ، **روضة الناظرين** ، جـ ١ ، ١٦٢ .

(١٤) المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ٧٧ .

(١٥) البسام ، **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٤٥٧ .

(١٦) الجاسر ، **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، ربيع الثاني ١٣٩١هـ ، جـ ١٠ ، ٨٩٢ - ٨٩٣ .

(١٧) مقبل بن عبد العزيز الذكير ، مسودة لتاريخ مخطوط لم تمهل المنية مؤلفه الذكير من اختيار واحد من العناوين التي اقترحها . وهذه النسخة موجودة في جامعة بغداد تحت رقم ٥٦٩ - ٥٧١ ، الورقات ٧٨ ، ٩٣.

(١٨) الأديب هو عبد العزيز بن محمد القاضي ، واسم كتابه : **العنيزية** «**قصيدة تضم مختصر تاريخ عنيزة منذ تأسيسها حتى وقتنا الحاضر**» ، (بغداد : مطبعة الصباح ، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م) .

(١٩) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٥ .

(٢٠) **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٨٨ .

(٢١) المرجع نفسه ، ٨٨٨ - ٨٩٢ .

(٢٢) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٣ - ٦١٥ .

(٢٣) محمد بن سعد الشويعر «**من المخطوطات التاريخية لبلادنا : تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق للشيخ عبد الله بن محمد بن بسام**» ، الدارة ، السنة التاسعة ، رجب ١٤٠٤هـ ، العدد الرابع ، ٣٣ - ٦٤ .

(٢٤) انظر مثلاً ، عبد الفتاح حسن أبو علية ، **دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر** (مصادر تاريخ البلاد السعودية) ، (الرياض : دار المريخ للنشر ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) ، ٣٦٨ ؛ دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر ، (الرياض : دار المريخ للنشر ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) ، ١٥٦ .

(٢٥) عن تشارلز داوتي انظر :

Robin Bidwell, *Travellers in Arabia,* (London: The Hamlyn Publishing Group Limited, 1976), 84-95.

(٢٦) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٣ .

(٢٧) منهاج الطلب عن مشاهير قبائل العرب ، (القاهرة : مطبعة الحلبي ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م) ، ٢٢ .

(٢٨) **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٨٨ . وعن العالم الأديب الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز بن زامل آل سليم انظر : البسام ، **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٤٥٧ ؛ العبودي ، **المعجم الجغرافي** ، جـ ٤ ، ١٦٥٠ - ١٦٥١ .

(٢٩) البسام ، **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٣ .

(٣٠) المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ .

(٣١) على أن الجاسر ذكر معلومة تتعلق بتجارة المؤرخ ابن بسام سيشار إليها فيما بعد .

(٣٢) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٣ .

(٣٣) المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ٦١٣ ؛ الجاسر ، **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٨٨ .

(٣٤) المرجع نفسه .

(٣٥) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٤ .

(٣٦) المرجع نفسه . ويلاحظ هنا أنه سمى البستان ، «المهيرية» بينما المؤرخ ابن بسام ، في «تحفة المشتاق» سماه «الموبهرية» كما سيأتي .

(٣٧) **تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق** ، نسخة خطية ، نقلها عن الأصل المحفوظ لدى ورثة المؤلف ، نور الدين شربية عام ١٣٧٥هـ ، ورقة ١٥٧ .

(٣٨) المرجع نفسه ، ورقة ١٦٦ .

(٣٩) عن نخيل السكري أو السكرية انظر ، العبودي ، **المعجم الجغرافي** ، جـ ١ ، ١١٤ – ١١٥ .

(٤٠) **تحفة المشتاق** ، ورقة ١٧٥ .

(٤١) أحمد بن محمد المنقور ، **تاريخ الشيخ أحمد بن محمد المنقور** ، تحقيق : عبد العزيز الخويطر ، (الرياض : ١٣٩٠هـ) ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٥ .

ايضا انظر :

Mohammed T. Al-Thenayan, *History-Writing In Najd,* Ph.D. Thesis, University of Exeter, 1976, 112-113.

(٤٢) البسام ، **تحفة المشتاق** ، انظر مثلاً الأوراق : ٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ .

(٤٣) **المعجم الجغرافي** ، جـ ١ ، ص ١١٧ ، وعن البرحى أو البرحية انظر أيضاً المرجع نفسه ، ص ١١٦ .

(٤٤) **تحفة المشتاق** ، ورقة ١٨٣ .

(٤٥) المرجع نفسه ، ورقة ١٨٥ .

(٤٦) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ص ٦١٤ .

(٤٧) أمين الريحاني ، **ملوك العرب** ، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٦م) ، جـ ٢ ، ص ١٢٦ .

(٤٨) **Charles M. Doughty,** *Travels In Arabia Deserta* (New York: Dover Publications, Inc., 1979), **Vo1.II,** 379

(٤٩) البسام ، **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ص ٦١٥ .

(٥٠) المرجع نفسه ، ص ٦١٤ .

(٥١) الشويعر ، **من المخطوطات التاريخية** ، الدارة ، السنة التاسعة ، رجب ١٤٠٤هـ ، العدد الرابع ، ٤٠ .

(٥٢) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٥ .

(٥٣) **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٨٨ .

(٥٤) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٥ .

(٥٥) **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٨٨ .

(٥٦) **من المخطوطات التاريخية** ، الدارة ، السنة التاسعة ، رجب ١٤٠٤هـ ، العدد الرابع ، ٤١ .

(٥٧) ابن بسام ، **تحفة المشتاق** ، ورقة ١٩٠ .

(٥٨) المرجع نفسه ، دراسة عن المخطوطة التي نقل عنها هذا التاريخ (آخر ورقة من المخطوطة) . والدكتور الشويعر

مطلع على هذين النصين ، حيث أشار إلى الأول ، كما في النص ، وأثبت الآخر ضمن دراسة الناسخ للمخطوطة والتي اقتبسها الدكتور الشويعر في مقاله . انظر ، **من المخطوطات التاريخية** ، الدارة ، السنة التاسعة ، رجب ١٤٠٤هـ ، العدد الرابع ، ٤٦ .

(٥٩) عن مؤرخي المجموعة الأولى أحمد بن بسام ، وأحمد المنقور ، وعبد الله بن عضيب ، انظر : الجاسر ، مؤرخو نجد ، العرب ، جـ ٩ ، ٧٨٨ - ٧٩٢ ، انظر أيضا :

Al-Thenayan, *History-Writing In Najd,* 60-79, 89-101, 109-158.

أما محمد بن ربيعة العوسجي ، فقد درس كمؤرخ لأول مرة في رسالة الدكتوراه هذه . عنه انظر : 172-229 .

(٦٠) **علماء نجد** ، جـ ١ ، ١٢٢ .

(٦١) عن مقبل بن عبد العزيز الذكير ، انظر : الجاسر ، **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٩٥ ، ٨٩٨ - ٨٩٨ ، محمد سعد الشويعر ، **مخطوطة مقبل الذكير التاريخية عن المملكة العربية السعودية** ، محاضرة القيت بفرع جمعية الفنون والثقافة بالاحساء بتاريخ ١٣٩٨/٦/٩هـ .

(٦٢) عبد العزيز العبد الله الخويطر ، **عثمان بن بشر** « **منهجه ومصادره** » الرياض : مطابع اليمامة ، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م ٢٠ - ٢٣ .

(٦٣) **تاريخ مقبل الذكير المخطوط** ، الورقات ٧٥ - ٧٦ ، ٨٩ ، ١٠٣ .
الجاسر ، **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٩٦ .
الشويعر ، **مخطوطة الذكير** ، ٣٢ ، أبو علية ، **دراسات في تاريخ الجزيرة العربية** ، ١٦٥ .

(٦٤) هذه الدراسة ، نفس الهامش (٥٩) .

(٦٥) **علماء نجد** ، جـ ١ ، ١٢ - ١٣ .

(٦٦) واسم الكتاب كاملاً : «**الفواكه العديدة في المسائل المفيدة**» .

(٦٧) الجاسر ، **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ٩ ، ٧٩٢ - ٧٩٣ .

(٦٨) الخويطر ، **عثمان بن بشر** ، ١٥ - ١٦ .

(٦٩) القاضي ، **روضة الناظرين** ، جـ ٢ ، ٢٠٧ - ٢٠٨ ، محمد بن عمر الفاخرى ، **الأخبار النجدية** ، تحقيق عبد الله بن يوسف الشبل ، (الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود «لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر د . ت .) ، ٣٠ ، البسام ، **علماء نجد** ، جـ ٣ ، ٩٢٣ .

(٧٠) الفاخري ، **الأخبار النجدية** ، هامش (١) ٥٩ .

(٧١) البسام ، **علماء نجد** ، جـ ٣ ، ٩٢٣ ، الفاخري ، **الأخبار النجدية** ، ٣٠ .

(٧٢) البسام ، **علماء نجد** ، جـ ١ ، ١١٩ ، ١٢١ - ١٢٢ ، القاضي ، **روضة الناظرين** ، جـ ١ ، ٤٤ - ٤٥ .

(٧٣) هذا الوصف أتى ضمن رسالة مطولة أرسلها إليه علامة الكويت عبد الله بن خلف الدحيان الكويتي يعزيه فيها بوفاة العالم المؤرخ محمود شكري الألوسي والتي جاء فيها «فقيه الأدباء وأديب الفقهاء سيدي شيخنا إبراهيم بن صالح بن عيسى . . . وذكرت أدام الله لك الذكر الجميل أنك اتخذت عنيزة دار إقامة أحسن الله لك العاقبة بلا ندامة وإنها لنعم الدار وأن جوار أهلها لمن أحسن الجوار بارك الله لك في منزلها وقرت عيناك

بملاحظة أهلها فلك الهناء بقوم يكرمون ولا يمكرون ويحسنون ولا يحزنون ويسرون ولايسيئون كان الله لك ولهم وأحسن إليك وإليهم» **البسام** ، **علماء نجد** ، جـ ١ ، ١٢٠ - ١٢١ .

(٧٤) المرجع نفسه ، جـ ٣ ، ٩٥١ - ٩٥٢ ، الجاسر ، **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٩٥ .

(٧٥) **علماء نجد** ، جـ ٣ ، ٩٥٢ .

(٧٦) كمجموعه الذي ألفه في الأدب والحكم والأشعار وعنونه بـ **الدليل المفيد لمن هو للدين والدنيا مريد**» والذي لايعرف عنه شيئا حتى الآن . المرجع نفسه ، جـ ٢ ، ٦١٥ .

(٧٧) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ ٢ ، ١٢٧ .

(٧٨) هذا إذا أخذ في الحسبان أن المؤرخ ولد سنة ١٢٧٠هـ ، وأن زيارة داوتي لعنيزة كانت في حدود عام ١٢٩٥هـ حيث يقول داوتي : "This warfare, which they call harb al-awwal, the former war, was in the years 1269-70 after the Hejra (twenty-five years before my coming to Aneyza). *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 459.

ويحدد بدول سنة زيارته لعنيزة بـ :

١٨٧٨م . انظر : *Travellers In Arabia,* 92-93

(٧٩) **ملوك العرب** ، جـ ٢ ، ١٢٢ - ١٢٣ .

(٨٠) عصام ضياء الدين السيد على ، «يوميات هاملتون عن رحلته إلى نجد» (١٣٣٥هـ - ١٩١٧م) **الكتاب السنوي الأول للأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسة الخليج العربي والجزيرة العربية** ، (الرياض : دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م) ١٠٨ - ١١٠ .

(٨١) **Doughty,** *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 424-24, 429-432.

(٨٢) عن تعصبه انظر : محمود السمرة ، **غربيون في بلادنا** ، (بيروت : منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٦٩م) ٦٠ ، ويقول بدول Bidwell عنه : "However he was himself hardly less fanatical" **Travellers In Arabia,** 94.

وقد نصحه صديقه عبد الله الخنيني أن يتخلى عن هذا التعصب ، وكذلك فعل أمير المدينة زامل .

Doughty, *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 364-368.

(٨٣) السمرة ، **غربيون في بلادنا** ، ٥٤ .

(٨٤) المرجع نفسه .

(٨٥) رحب به أمير المدينة زامل وحماه ، كما اعتاد أن يرسل إليه رجْلا من لحم الضأن الجيد .

Doughty, *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 364, 365, 371.

(٨٦) قال داوتي :

"Kenneyny Said to me on a morrow, when we were alone (and for the more kindness finding a Frankish word), "Mussu Khalil, if you lack moneywere it an hundred or two hundred reals, you may have this here of me." *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 386.

(٨٧) Ibid.

(٨٨) Ibid., 350, 361

وبالمناسبة ، فعندما رأى المؤرخ عبد الله بن بسام الرحالة داوتي حافياً ، أرسل إليه نعلاً لينتعل بها قال داوتي :

''My friends saw me a barefoot hakim, in rent clothing, as I was come-in from the Khala, and had escaped out of Boreyda. The younger Abdullah Bessam sent me sandals,....'' Ibid., 386.

(٨٩) عن تزويده بالزاد انظر : .Ibid., 484

(٩٠) عبد الله الخنيني ، وعبد الله العبد الرحمن البسام ، إشتريا له الذلول ، وسافر مع القافلة بمعية ورعاية أخي الخنيني أو قريبه «سليمان» وابن البسام «عبد الرحمن» .Ibid., 483, 486, 488

(٩١) هو عبد الله المحمد الخنيني ، ويعتبر عميد أو كبير اسرة الخنيني أو الخنانا كما يروى الشيخ محمد بن عثمان القاضي حيث يقول : «(الخنانا بعنيزة والزلفي وقد جاؤا من قفار إلى عنيزة والزلفي ونزح بعضهم إلى بغداد ، ومن أشهرهم الحاج عبد الله المحمد الخنيني .»

ويؤرخ وفاته في عام ١٢٩٨هـ والذي يتفق مع تاريخ داوتي ، حيث قال إنه توفى بعد زيارته لعنيزة بثلاث سنوات طبقا للخطاب الذي تلقاه من سليمان بن عبد الله البسام في جدة والذي قال فيه ان الخنيني حج وسافر بحرا إلى البصرة وهناك توفي . وقد قدر داوتي سن الخنيني أثناء زيارته لعنيزة بأربعين سنة فيكون والحالة هذه توفي عن ثلاثة وأربعين عاما .

القاضي ، منهاج الطلب ، ٣٥ - ٣٦ .

Doughty, *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 369, 487.

أيضا عن الخنيني انظر : .Ibid., 367-370, 388-390

(٩٢) العسافي من تميم . ابن بسام ، **تحفة المشتاق** ، ورقة ١٨٩ . وعن حمد العسافي .

انظر : .**Doughty**, *Arabia Deserta,* **Vol**, II. 386

(٩٣) عن هذا البسام ، الطيب ، كما دعاه داوتي انظر : ;Ibid., 376-377, 390-391

ويقول عنه البسام : «له معرفة واطلاع واسع في التاريخ والأنساب وانساب الخيل والبلدان . **علماء نجد** ، جـ ٢ ، هامش (١) ٣٧٦ - ٣٧٧ .

(٩٤) **Doughty**, *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 383-384.

(٩٥) **Ibid.** 376.

(٩٦) **Ibid.**, 383-384.

(٩٧) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ ٢ ، ١٢٧ .

(٩٨) داوتي لم يكن طبيباً أبداً ، وقد أخبر صديقه الخنيني بهذا ، كما أن تحصيله الدراسي لايشير إلى ذلك .

Doyghty Travels In Arabia Desenta, **Vol. II**, p. 370; **Bidwell** Travellers In Arabia, 84.

(٩٩) **Doughty**, *Travels in Arabia Deserta,* **Vol.** II, 383.

(١٠٠) حيث كان مقيماً في بغداد منذ ثلاثين سنة . .Ibid., 386

(١٠١) Ibid., 383-384.

(١٠٢) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٣ ، الجاسر ، **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٨٨ - ٨٨٩ .

(١٠٣) *Travels In Arabia Deserta,* **Vol.** II, 384.

(١٠٤) وعن الشيخ ابن عائض انظر : القاضي ، **روضة الناظرين** ، جـ ١ ، ٣٤٥ – ٣٥٠ . **Ibid.**, 383.

(١٠٥) القهوة : اسم قديم كان يطلق على قاعة الاستقبال في عنيزة وفي القصيم كله ، بل في كل أنحاء نجد ، وربما في مناطق أخرى . وسيشار إليها لاحقاً .

(١٠٦) انظر وصف هاملتون «للقهوة» السيد علي ، يوميات هاملتون ، **الكتاب السنوي** ، ص ١١٠ .

(١٠٧) المواعين : هي أواني الطبخ ، والكلمة الصحيحة ، التي كان يتوجب استعمالها هنا هي «المعاميل» وهي أواني القهوة والشاي ، والريحاني يعرف هذه الكلمة ، واستعملها في مواضع وكتب أخرى ، قال : «جاء دور راعي المعاميل القهوجي سالم» **ملوك العرب** ، جـ ٢ ، ١٤٤ ؛ وقال في كتاب آخر : «وقد استأنست أنا بالمعاميل بين يدي القهوجي . . .» أمين الريحاني ، **قلب لبنان** ، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠م) ، ٣١٠ .

(١٠٨) **ملوك العرب** ، جـ ٢ ، ١٢٤ .

(١٠٩) المرجع نفسه ، ١٢٣ .

(١١٠) المرجع نفسه ، ١٢٥ .

(١١١) *Travels In Arabia Deserta*, **Vol.** II, 385-386.

(١١٢) Ibid., 383.

(١١٣) Ibid., 386.

(١١٤) Ibid., 383.

(١١٥) Ibid.

(١١٦) إلى درجة أن عزله ابن رشيد عن قضاء عنيزة بسبب هذه العلاقة . القاضي ، **روضة الناظرين** ، جـ ١ ، ٣٤٦ ، البسام ، **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٥٦٢ .

(١١٧) المرجع نفسه ، ٥٦٢ – ٥٦٣ ، القاضي ، **روضة الناظرين** ، جـ ١ ، ٣٤٧ .

(١١٨) *Arabia Deserta*, **Vol. II**, 386.

(١١٩) Ibid., 367.

(١٢٠) Ibid., 397.

(١٢١) Ibid., 370.

(١٢٢) قيل هذا اعتماداً على الإنتاج العلمي لهؤلاء العلماء ، والذي غطى هذه العلوم .

(١٢٣) *Arabia Deserta*, **Vol.** II, 386.

(١٢٤) **ملوك العرب** ، جـ ٢ ، ١٢٣ .

(١٢٥) المرجع نفسه .

(١٢٦) **Doughty**, *Arabia Deserta*, **Vol.** II, 368,389.

(١٢٧) Ibid., 389.

(١٢٨) Ibid., 448,451.

(١٢٩) البسام ، **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٤ – ٦١٥ .

(١٣٠) *Arabia Deserta*, **Vol.** II, 386.

(١٣١) Ibid.

(١٣٢) Ibid.

(١٣٣) **Doughty,** *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 370.

(١٣٤) Ibid., 397-398.

(١٣٥) انظر : السمرة ، **غربيون في بلادنا** ، ٥٩ .
Bidwell, *Travellers In Arabia, 84-85.*

(١٣٦) **Doughty,** *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 387-388.

(١٣٧) Ibid., 416-422.
عن آثار العيارية انظر : العبودي ، **المعجم الجغرافي** ، جـ ٤ ، ١٧٦٣ - ١٧٦٨ .

(١٣٨) *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 422.

(١٣٩) المرة الأولى كانت عندما قابلهما في بستان الخنيني ، والثانية كانت في قهوة البسام .
Ibid., 383-385.

(١٤٠) انظر مثلاً ماقاله الشيخ حمد الجاسر ، **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٨٨ .

(١٤١) **Doughty,** *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 425-426.

(١٤٢) يقول داوتي : "Abdullah Bessam, the younger (nephew of the elder Abdullah el-Bessam)"
ومن تتبع نسب آل بسام يتضح أن محمدا والد المؤرخ ، وعبد الله البسام هذا يكونان أبناء عم بالنفس . وكلمة "Nephew" في اللغة الإنجليزية كما هو معروف تعني ابن أخت او ابن أخ . وفي الحالة هذه يكون ابن اخته ، إلا أن يكون داوتي قصد قرابته من ناحية الأب وأخطأ في ذلك .
Ibid., 383;
البسام ، **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٣٤١ - ٣٤٢ ، ٣٧٦ ، ٦١٣ .

(١٤٣) *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 472

(١٤٤) Ibid., 398,472.

(١٤٥) Ibid., 402.

(١٤٦) انظر **تحفة المشتاق** ، مثلا ورقة ١٧٥ .

(١٤٧) أقصد سوريا الكبرى ، وهي الشام كله ، لبنان وفلسطين وسوريا اليوم .

(١٤٨) هذا الرحالة هو «البارون ادوارد نولد Baron Edward Nolde والذي زار مدارس حائل وكتب عنها . أبو عليه ، **دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية** ، ٤١٦ - ٤١٧ .

(١٤٩) انظر مثلا : مختار القاضي ، **أثر المدنية الإسلامية في الحضارة الغربية** ، (القاهرة : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية «لجنة التعريف بالإسلام» ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٤م) ، ٢٢٥ .

(١٥٠) المرجع نفسه .

(١٥١) المرجع نفسه ، ٢٢٦ .

(١٥٢) **Doughty,** *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 386.

(١٥٣) Ibid., 487.

(١٥٤) Ibid., 376.

(١٥٥) **ملوك العرب** ، جـ ٢ ، ١٢٧ .

(١٥٦) **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٨٩ .

(١٥٧) **من المخطوطات التاريخية** ، الدارة ، السنة التاسعة ، رجب ١٤٠٤هـ ، العدد الرابع ، ٤٠ .

(١٥٨) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٣ - ٦١٤ .

(١٥٩) يقول الشيخ محمد بن عثمان القاضي : «وله ارتباط بآل بسام بعنيزة في صداقة متينة .» **روضة الناظرين** ، جـ ١ ، ٤٦ .

(١٦٠) ولد في نفس السنة التي ولد فيها ابن بسام . الجاسر ، **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٨٨ .

(١٦١) **Doughty,** *Arabia Deserta,* **Vol.** II, 386.

(١٦٢) Ibid., 385-386.

(١٦٣) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٥ .

(١٦٤) أمين الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ ٢ ، ١٢٦ - ١٢٧ .

(١٦٥) وهذا مما دفع باحثاً كالدكتور أبو عليه إلى القول : «والشيخ عبد الله بن محمد البسام يسجل الأحداث التاريخية بطريقة تجعل الإنسان ينظر إليها نظرة معينة منشؤها أن هذا المؤرخ كان كثير الأسفار وعاش في بلاد مختلفة ، مما أكسبه ثقافة عالية وأفقاً واسعاً . . .» **دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية** ، ٣٦٩ .

(١٦٦) الريحاني ، **ملوك العرب** ، جـ ٢ ، ١٢٦ .

(١٦٧) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٣ .

(١٦٨) **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٨٨ - ٨٨٩ .

(١٦٩) **ملوك العرب** ، جـ ٢ ، ١٢٦ .

(١٧٠) **منهاج الطلب** ، ٢٢ .

(١٧١) **روضة الناظرين** ، جـ ١ ، ١٦٧ .

(١٧٢) *Arabia Deserta,* **Vol. II,** 386.

(١٧٣) **تحفة المشتاق** ، ورقة ١٨١ .

(١٧٤) البسام ، **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٤ ، والغريب أنه لم يشر إلى حفر هذه البئر في كتابه «تحفة المشتاق» ولا إلى هذه الأبيات .

(١٧٥) **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٨٩ .

(١٧٦) علماء نجد ، جـ٢ ، ٦١٥

(١٧٧) قال ابن بشر عند وفاة الإمام تركي : «وقد رثاه رحمه الله عدد كثير من الشعراء ، ولكن ليست على اللفظ العربي ، فلا تليق بهذا الكتاب ، . . .» على أنه كسر هذا الالتزام في سوابقه مرة عندما أورد شعراً نبطياً لحميدان الشويعر . عثمان بن عبد الله بن بشر ، **عنوان المجد في تاريخ نجد** ، تحقيق : الشيخ عبد الرحمن ابن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ ، (الرياض : مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) جـ ٢ ، ١١٨ ، ٣٥٠ .

(١٧٨) البسام ، **تحفة المشتاق** ، الورقات ٦٠ ، ٧١ - ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٢ - ٩٣ ، ٩٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ .

(١٧٩) ولعل الدكتور عبد الله الصالح العثيمين أول من درس ، بشكل أكاديمي ، الشعر النبطي كمصدر من مصادر التاريخ . عبد الله العثيمين ، «الشعر النبطي مصدراً لتاريخ نجد» بحث ضمن الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في ٥ - ١٠ جماد الاولى ١٣٩٧هـ الموافق ٢٣ - ٢٨ ابريل ١٩٧٧م قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة الرياض (الملك سعود) المملكة العربية السعودية . **الكتاب الأول ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية** (الرياض : مطبوعات جامعة الرياض (الملك سعود) ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م) جـ ١ ، ٣٧٧ - ٣٩٦ .

(١٨٠) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٤ .

(١٨١) **تاريخ نجد الحديث** ، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠م) ، ١٥ .

(١٨٢) المرجع نفسه .

(١٨٣) لدى الشيخ البسام «هو» بدلاً من «هما» . علماء نجد ، جـ ٢ ، ٦١٤ ، وكتبها الشويعر هكذا «هو من مراجعي في النبذة الأولى» من المخطوطات التاريخية الدارة ، السنة التاسعة ، رجب ، ١٤٠٤هـ ، العدد الرابع ، ٤٠ ، ولعل السبب ناتج عن اختلاف في طبعات كتاب الريحاني .

(١٨٤) **تاريخ نجد** ، ١٧ .

(١٨٥) **تحفة المشتاق** ، ورقة ١٩٠ .

(١٨٦) المرجع نفسه ، ورقة ١٨٨ .

(١٨٧) المرجع نفسه .

(١٨٨) المرجع نفسه ، ورقة ٣ .

(١٨٩) المرجع نفسه ، ورقة ١٨٨ .

(١٩٠) المعجم الجغرافي ، جـ ١ ، ٧٦ .

(١٩١) المرجع نفسه ، ٧٧ .

(١٩٢) هما **تحفة المشتاق ، والدليل المفيد** .

(١٩٣) الأول : «**تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ووفيات بعض الأعيان وأنسابهم وبناء بعض البلدان (من ٧٠٠هـ - ١٣٤٠هـ)**.».
والثاني : «**كتاب عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر** .»

(١٩٤) إبراهيم بن صالح بن عيسى ، **عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر** ، تحقيق : الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ ، (الرياض : طبع بالمطابع الوطنية الحديثة على نفقة وزارة المعارف ، د . ت) ، ٦ .

(١٩٥) ابن بسام ، **تحفة المشتاق** ، «دراسة عن المخطوطة» آخر ورقة .

(١٩٦) تحفة المشتاق ، ورقة ٣ ، وعن هذه القائمة ومحتواها انظر الورقات ٣ - ٥ .

(١٩٧) الصحيح في وليس من .

(١٩٨) **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٨٨ .

(١٩٩) **علماء نجد** ، جـ ٢ ، ٦١٤ - ٦١٥ .

(٢٠٠) المرجع نفسه ، ٦١٤ .
(٢٠١) **تحفة المشتاق** ، الورقة الأخيرة (دراسة عن المخطوطة) .
(٢٠٢) من المخطوطات التاريخية ، الدارة ، العدد الرابع ، السنة التاسعة ١٤٠٤هـ ، ٥٧ .
(٢٠٣) المرجع نفسه ، ٥٥ – ٥٦ .
(٢٠٤) **تاريخ نجد** ، ٤٩٣ .
(٢٠٥) الجاسر ، **مؤرخو نجد** ، **العرب** ، جـ ١٠ ، ٨٨٦ .

المراجـــــع

أولاً : المراجع العربية

البسام ، عبد الله بن عبد الرحمن ، **علماء نجد خلال ستة قرون** ، ثلاثة أجزاء ، مكة المكرمة ، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ، ١٣٩٨هـ .

البسام ، عبد الله بن محمد ، **تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق** ، نسخة خطية ، نقلها عن الأصل المحفوظ لدى ورثة المؤلف ، نور الدين شريبة عام ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م .

ابن بشر ، عثمان بن عبد الله ، **عنوان المجد في تاريخ نجد** ، ط ٤ ، جزءان ، تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف ابن عبد الله آل الشيخ ، الرياض ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ، (الجزء الأول : ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م ، الجزء الثاني : ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م) .

الجاسر ، حمد . «**مؤرخو نجد من أهلها**» ، **العرب** ، الجزء التاسع ، السنة الخامسة ، ربيع الأول ١٣٩١هـ – مايو ١٩٧١م ، الجزء العاشر ، السنة الخامسة ، ربيع الثاني ١٣٩١هـ – يونيو ١٩٧١م ، الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر .

ابن حميد ، محمد بن عبد الله . **السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة** ، نسخة مصورة لهذه المخطوطة ، جامعة الملك سعود ، عمادة المكتبات ، رقم ١٢٨٧ .

الخويطر ، عبد العزيز العبد الله . **عثمان بن بشر «منهجه ومصادره»** ، ط ٢ ، الرياض ، مطابع اليمامة ، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م .

الذكير ، مقبل بن عبد العزيز . مسودة لتاريخ مخطوط لم تمهل المنية مؤلفه الذكير من اختيار أحد العناوين التي فكر بها واقترحها داخل الكتاب المخطوط ، وهذه النسخة موجودة في جامعة بغداد تحت رقم ٥٦٩ – ٥٧١ .

الريحاني ، أمين . **تاريخ نجد الحديث** ، الطبعة الأولى للأعمال العربية الكاملة (المجموعة) ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ .

الريحاني ، أمين ، **قلب لبنان** ، الطبعة الأولى للأعمال العربية الكاملة (المجموعة) ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠م .

الريحاني ، أمين ، **ملوك العرب** ، جزءان ، الطبعة الثانية للأعمال العربية الكاملة (المجموعة) ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٦م .

السمرة ، محمود ، **غربيون في بلادنا** ، بيروت ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٦٩م .

السيد علي ، عصام ضياء الدين ، «يوميات هاملتون عن رحلته إلى نجد (١٣٣٥هـ - ١٩١٧م)» **الكتاب السنوي الأول للأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسة الخليج العربي والجزيرة العربية** ، الرياض ، دارة الملك عبد العزيز ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

الشويعر ، محمد بن سعد ، «**من المخطوطات التاريخية لبلادنا : تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق ، للشيخ عبد الله بن محمد بن بسام**» ، الدارة ، السنة التاسعة ، رجب ١٤٠٤هـ ، العدد الرابع .

مخطوطة مقبل الذكير التاريخية من المملكة العربية السعودية ، **محاضرة القيت بفرع جمعية الفنون والثقافة بالإحساء** ، بتاريخ ١٣٩٨/٦/٩هـ .

العبودي ، محمد بن ناصر ، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (بلاد القصيم)** ستة أجزاء ، الرياض ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

العثيمين ، عبد الله الصالح ، «الشعر النبطي مصدرا لتاريخ نجد» بحث ضمن الأبحاث المقدمة **للندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية** في ٥ - ١٠ جمادى الأولى ١٣٩٧هـ الموافق ٢٣ - ٢٨ ابريل ١٩٧٧م ، قسم التاريخ ، كلية الآداب جامعة الرياض (الملك سعود) ، المملكة العربية السعودية . الكتاب الأول ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الجزء الأول ، الرياض ، مطبوعات جامعة الرياض (الملك سعود) ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

أبو عليه ، عبد الفتاح حسن . **دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر (مصادر تاريخ البلاد السعودية)** ، الرياض ، دار المريخ للنشر ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

دراسات في تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر ، الرياض ، دار المريخ للنشر ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

ابن عيسى ، إبراهيم بن صالح ، **عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر** ، تحقيق **الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ** ، الرياض ، طبع بالمطابع الوطنية الحديثة على نفقة وزارة المعارف ، د . ت .

الفاخري ، محمد بن عمر ، **الأخبار النجدية** ، تحقيق ، عبد الله بن يوسف الشبل ، الرياض ، جامعة الإمام محمد بن سعود «لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر» ، د . ت .

القاضي ، عبد العزيز بن محمد ، **العنيزية «قصيدة تضم مختصر تاريخ عنيزة منذ تأسيسها حتى وقتنا الحاضر»** ، بغداد ، مطبعة الصباح ، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م .

القاضي ، محمد بن عثمان ، **روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين** ، جزءان ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مطبعة الحلبي ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

القاضي ، محمد بن عثمان ، **منهاج الطلب عن مشاهير قبائل العرب** ، القاهرة ، مطبعة الحلبي ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

القاضي ، مختار ، **أثر المدنية الإسلامية في الحضارة الغربية** ، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية «لجنة التعريف بالإسلام» ، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٤م .

المنقور ، أحمد بن محمد ، **تاريخ الشيخ أحمد بن محمد المنقور** ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٣٩٠م .

ثانياً : المراجع الأجنبية

Al-Thenayan, Mohammed Thenayan, *History-Writing In Najd,* Ph.D. Thesis, University of Exeter, England, 1976.

Bidwell, Robin, *Travellers In Arabia,* London, The Hamlyn Publishing Group Limited, 1976.

Doughty, Charles M., *Travels In Arabia Deserta,* **Vol. II,** New York, Dover Publication, Inc., 1979.

The Historian Ibn Bassam (1270-1346 A.H.) His Scholarly Identity and Its Early Roots in the Light of a New or Overlooked Data

MOHAMMED THENAYAN AL-THENAYAN
Assistant Professor, Department of History,
Faculty of Arts and Humanities,
King Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia.

ABSTRACT. Abdullah Ibn Mohammed Ibn Bassam played an essential role in the history-writing of Arabia. He showed, in his early life, a firm sign of an interest of studying and learning history and literature in general.

In spite of his keen interest in history and literature, most researchers and scholars, perhaps, it was due to their lacking of information concerning the early cultural life of Ibn Bassam, have mostly been under the impression that such interest was merely the offspring of a late stage in his life. Some of those scholars and researchers, however, go even further to the extent of claiming that Ibn Bassam's participation in the writing of history was simply a result of his relation and contact with the contemporary historian Ibn Isa.

This study is an attempt to prove that such attitude is entirely incorrect. Our conclusion is built upon several factors among which are the overlooked statements of the English traveller Charles Doughty, supported at the same time, by some other original sources.

In the light of the above mentioned resources, this study will trace Ibn Bassam's early cultural life in a way as to prove his status as being an eminent scholar and historian.